سورة الأنعام

مكية، إلا ست آيات فإنها مدنيات، وهي قوله: {قُلْ تَعَالَوْاْ} إلى آخر الآيات الثلاث وهو: {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}. وقوله تعالى: {وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ} إلى قوله تعالى: {وَكُنتُمْ عَنْ ءايَٰتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ}، وهي مائة وخمس وستون آية، وعدد كلماتها ثلاثة آلاف وخمس وخمسون كلمة، وعدد حروفها اثنا عشر ألفاً وأربعمائة واثنان وعشرون حرفاً

{بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. لْحَمْدُ للَّهِ لَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلاٌّرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ} والمدح أعم من الحمد لأن المدح للعاقل ولغير العاقل، فكما يمدح العاقل على أنواع فضائله كذلك يمدح اللؤلؤ لحسن شكله والياقوت على نهاية صفائه وصقالته، والحمد لا يحصل إلا للفاعل المختار على ما يصدر منه من الإحسان.

والحمد أعمّ من الشكر لأن الحمد تعظيم الفاعل لأجل ما صدر عنه من الإنعام واصلاً إليك أو إلى غيرك والشكر تعظيمه لأجل إنعام وصل إليك وحصل عندك. والمقصود من هذه الآية ذكر الدلالة وعلى وجود الصانع والفرق بين الجعل والخلق أن كلاً منهما هو الإنشاء والإبداع إلا أن الخلق: مختص بالإنشاء التكويني وفيه معنى التقدير والتسوية، والجعل: عام له كما في هذه الآية الكريمة، وللتشريعي أيضاً كما في قوله تعالى: {مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ} (المائدة: 301) الآية وجمع الظلمات دون النور لكثرة محالها إذ ما من جرم إلا وله ظل، والظل: (هو الظلمة) بخلاف النور فإنه من جنس واحد وهو النار، وهذا إذا حملا على الكيفيتين المحسوستين بحس البصر وإن حمل النور على نور الإسلام والإيمان واليقين والنبوة، والظلمات على ظلمة الشرك والكفر والنفاق فنقول: لأن الحق واحد والباطل كثير وتقديم الظلمات على النور لأن الظلمة عدم النور عن الجسم الذي يقبله وعدم المحدثات متقدم على وجودها {ثُمَّ لَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} أي يشركون به غيره وهذه الجملة إما معطوفة على قوله الحمد لله والباء متعلقة بكفروا فيكون يعدلون من العدول ولا مفعول له. والمعنى أن الله تعالى حقيق بالحمد على ما خلقه لأنه تعالى ما خلقه إلا نعمة، ثم الذين كفروا

بربهم يميلون عنه فيكفرون نعمته أو متعلقة بيعدلون وهو من العدول ويوضع الرب موضع الضمير العائد إليه تعالى. والمعنى أنه مختص باستحقاق الحمد والعبادة باعتبار ذاته وباعتبار شؤونه العظيمة الخاصة به ثم هؤلاء الكفرة يسوون به غيره في العبادة التي هي أقصى غايات الشكر الذي رأسه الحمد، وإما معطوف على قوله: {خُلِقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ} والباء متعلقة بيعدلون وقدمت لأجل الفاصلة وهي إما بمعنى عن ويعدلون من العدول. والمعنى أن الله تعالى خلق ما لا يقدر عليه أحد سواه ثم الذين كفروا يعدلون عن ربهم إلى غيره أو للتعدية ويعدلون من العدل وهو التسوية. والمعنى أنه تعالى خلق هذه الأشياء العظيمة التي لا يقدر عليها أحد سواه ثم إنهم يعدلون به جماداً لا يقدر على شيء أصلاً فيكون المفعول محذوفاً، وكلمة «ثم» لاستبعاد الشرك بعد وضوح آيات قدرته تعالى. {هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ مِّن طِينٍ} أي إن الله خلق جميع الإنسان من آدم وآدم كان مخلوقاً من طين فلهذا السبب قال: {هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ مّن طِينٍ} أي من جميع أنواعه فلذلك اختلفت ألوان بني آدم وعجنت طينتهم بالماء العذب والملح والمر فلذلك اختلفت أخلاقهم وأيضاً إن الإنسان مخلوق من المني، والمني إنما يتولّد من الأغذية وهي إما حيوانية أو نباتية، فحال الحيوانية كالحال في كيفية تولّد الإنسان فبقي أن تكون الأغذية نباتية فثبت أن الإنسان مخلوق من الأغذية النباتية، ولا شك أنها متولدة من الطين فثبت أن كل إنسان متولد من الطين.

وقال المهدوي: إن الإنسان مخلوق ابتداء من طين لخبر: «ما من مولود يولد إلا ويذر على النطفة من تراب حفرته وأياً ما كان الإنسان» ففيه من وضوح الدلالة على كمال قدرته تعالى على البعث ما لا يخفى فإن من قدر على إحياء ما لم يشم رائحة الحياة قط كان على إحياء ما قارنها مدة أظهر قدرة {ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً} أي خصص الله موت كل واحد بوقت معين وذلك التخصيص تعلق مشيئته تعالى بإيقاع ذلك الموت في ذلك الوقت {وَأَجَلٌ مُّسمًّى} أي حد معين لبعثكم جميعاً من البرزخ {عِندَهُ}.

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الله تعالى قضى لكل أحد أجلين، أجلاً من مولده إلى موته، وأجلاً من موته إلى مبعثه فإن كان براً تقياً وصولاً للرحم زيد

له من أجل البعث في أجل العمر، وإن كان فاجراً قاطعاً للرحم نقص من أجل العمر وزيد في أجل البعث. وقال حكماء الإسلام: إن لكل إنسان أجلين.

أحدهما: الآجال الطبيعية.

والثاني: الآجال الاختزامية:

فالآجال الطبيعية: هي التي لو بقي ذلك المزاج مصوناً عن الأعراض الخارجية لانتهت مدة بقائه إلى الوقت الفلاني.

والآجال الاختزامية: هي التي تحصل بسبب من الأسباب الخارجية كالغرق والحرق ولدغ الحشرات وغيرها من الأمور المعضلة {ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ} أي ثم بعد ظهور مثل هذه الحجة الباهرة أنتم أيها الكفار تنكرون صحة التوحيد للصانع، أو ثم بعد مشاهدتكم في أنفسكم من الشواهد ما يقطع الشك بالكلية أنتم أيها الكفار تستبعدون وقوع البعث ومن قدر على الابتداء فهو على الإعادة أقدر. فالآية الأولى دليل التوحيد والثانية دليل البعث {وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوٰتِ وَفِى ٱلأَرْضِ} أي وهو الذي اتصف بالخلق هو المعبود في السمٰوات والأرض والمتصرف فيهما {يَعْلَمُ سِرَّكُمْ} في القلوب من الدواعي والصوارف {وَجَهْرَكُمْ} في الجوارح من الأعمال {وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ} أي مكتسبكم أي تستحقون على فعلكم من الثواب والعقاب {وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ} أي ما يظهر للكفار من آية من الآيات التكوينية التي يجب فيها النظر التي من جملتها جلائل شؤونه الدالة على وحدانيته تعالى إلا كانوا معرضين عن تأمل تلك الدلائل تاركين النظر المؤدي إلى الإيمان بمكونها، وهذه الآية تدل على أن التقليد باطل والتأمل في الدلائل واجب، ولولا ذلك لما ذم الله المعرضين عن التفكّر في الدلائل. أو المعنى ما ينزل إلى أهل مكة آية من الآيات القرآنية إلا كانوا مكذبين بتلك الآية. ومن الأولى مزيدة لاستغراق الجنس الذي يقع في النفي، والثانية للتبعيض وهي مع مجرورها صفة لآية {فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ} أي فقد كذب أهل مكة بالمعجزات كانشقاق القمر بمكة وانفلاقه فلقتين فذهبت فلقة وبقيت فلقة، أو بالقرآن أو بمحمد صلى الله عليه وسلم {فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ} أي سوف يأتيهم أخبار كونهم مستهزئين بذلك الحق يوم بدر

ويوم أُحُد ويوم الأحزاب {أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ} أي ألم يعرف أهل مكة بمعاينة الآثار في أسفارهم للتجارة إلى الشام في الصيف وإلى اليمن في الشتاء، وبسماع الأخبار كم أمة أهلكنا من قبل زمان أهل مكة كقوم نوح وعاد وثمود، وقوم لوط وقوم شعيب وفرعون وغيرهم. {مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ} أي أعطينا أولئك الجماعة من البسطة في الأجساد والامتداد في الأعمار، عليهم مدراراً والسعة في الأموال والاستظهار بأسباب الدنيا ما لم نعطكم يا أهل مكة {وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ} أي المطر {عَلَيْهِم مِّدْرَاراً} أي متتابعاً كلما احتاجوا إليه {وَجَعَلْنَا ٱلأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ} أي من تحت بساتينهم وزروعهم وشجرهم {فَأَهْلَكْنَٰهُمْ بِذُنُوبِهِمْ} بتكذيبهم الأنبياء وبكونهم باعوا الدين بالدنيا {وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً ءَاخَرِينَ} أي أحدثنا من بعد إهلاك كل قرن قرناً آخرين بدلاً من الهالكين، وهذا تنبيه على أن إهلاك الأمم الكثيرة لم ينقص من ملكه شيئاً ولا يتعاظم على الله هلاكهم وخلو بلاده منهم فإنه تعالى قادر على أن ينشىء مكانهم قوماً آخرين يعمر بهم بلاده {وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰباً فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَٰذَآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ} أي ولو نزل الكتاب من السماء دفعة واحدة عليك يا أشرف الخلق كما سألك عبد الله بن أبي أمية المخزومي وأصحابه في صحيفة واحدة فرأوه عياناً ولمسوه لطعنوا فيه وحملوه على أنه مخرفة وقالوا: إنه سحر.

وقال ابن إسحاق: والقائلون بالأقوال الآتية، زمعة بن الأسود والنضر بن الحرث بن كلدة، وعبدة بن عبد يغوث وأبي بن خلف، والعاص بن وائل كما أخرجه ابن أبي حاتم.

{وَقَالُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ} أي هلا أنزل على محمد ملك يخبرنا بصدقه في دعوى النبوة ويشهد بما يقول. والمعنى أن منكري النبوات يقولون: لو بعث الله إلى الخلق رسولاً لوجب أن يكون ذلك الرسول واحداً من الملائكة، لأن علومهم أكثر وقدرتهم أشد ومهابتهم أعظم، وامتيازهم عن الخلق أكمل، ووقوع الشبهات في نبوتهم أقل. فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة من وجهين:

الأول: قوله تعالى: {وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِىَ ٱلأَمْرُ} أي لفرغ من هلاكهم أي لو أنزل الملك على هؤلاء الكفار فربما لم يؤمنوا، وإذا لم يؤمنوا وجب إهلاكهم بعذاب

الاستئصال فحينئذ ما أنزل الله تعالى الملك إليهم لئلا يستحقوا هذا العذاب، وأيضاً إنهم إذا شاهدوا الملك زهقت روحهم من هول ما يشاهدون وذلك أن الآدمي إذا رأى الملك فإما أن يراه على صورته الأصلية أو على صورة البشر. فإن رآه على صورته الأصلية لم يبقى الآدمي حياً فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى جبريل على صورته الأصلية غشي عليه وأن جميع الرسل عاينوا الملائكة في صورة البشر كأضياف إبراهيم وأضياف لوط، وخصم داود وغير ذلك. وحيث كان شأنهم كذلك وهم مؤيدون بالقوى القدسية فما ظنك بمن عداهم من العوام، وأيضاً إذا رآه يزول الاختيار الذي هو قاعدة التكليف فيجب إهلاكهم وذلك مخل بصحة التكليف، وإن رآه على صورة البشر فلا يتفاوت الحال سواء كان هو في نفسه ملكاً أو بشراً، وأيضاً إن إنزال الملك يقوي الشبهات لأن كل معجزة ظهرت عليه ردوها وقالوا: هذا فعلك فعلته باختيارك وقدرتك ولو حصل لنا مثل ما حصل لك من القوة والعلم لفعلنا مثل ما فعلته. {ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ} أي لا يمهلون بعد نزول الملك طرفة عين وكلمة، «ثم» للتنبيه على أن عدم الإنظار أشد من قضاء الأمر لأن مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة وأشق.

والثاني: قوله تعالى: {وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلاً} أي ولو جعلنا الرسول ملكاً لجعلنا الملك على صورة الرجل، لأن البشر لا يستطيعون أن ينظروا إلى الملائكة في صورهم التي خلقوا عليها ولو نظر إلى الملك ناظر من الآدميين لصعق عند رؤيته {وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ} أي ولو صورنا الملك رجلاً لصار فعلنا نظيراً لفعلهم في التلبيس وإنما كان ذلك تلبيساً لأن الناس لا يظنون أنه بشر مع أنه ليس بشراً، وإنما كان فعلهم تلبيساً لأنهم يقولون لقومهم: إنه بشر مثلكم والبشر لا يكون رسولاً من عند الله تعالى، وإذا كان الأمر كذلك فلم يفدهم طلب نزول الملك، لأنه لو نزل لهم الملك لنزل على صورة رجل لعدم استطاعتهم لمعاينة هيكله ولأن الجنس إلى الجنس أميل فيقولون له: ما أنت إلا بشر مثلنا ويقولون: إنا لا نرضى برسالة هذا الشخص فيعود سؤالهم ويستمرون يطلبون الملك فلا تنقطع شبهتهم فنزول الملك لا يفيدهم شيئاً يزدادون في الحيرة والاشتباه، وأيضاً إن طاعات

الملائكة قوية فيستحقرون طاعة البشر وربما لا يعذرونهم في الإقدام على المعاصي {وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ} أي وبالله لقد استهزىء برسل أولي شأن خطير وذوى عدد كثير كائنين من زمان قبل زمانك. وهذه الآية تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم أي تخفيف لضيق قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم عند سماعه من القوم الذين قالوا: إن رسول الله يجب أن يكون ملكاً من الملائكة ووعيد أيضاً لأهل مكة {فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُمْ مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ} أي فدار وأحاط بالذين سخروا من أولئك الرسل عليهم السلام العذاب الذي يستهزئون به وينكرونه، فإن الكفار كانوا يستهزئون بالعذاب الذي كان يخوفهم الرسول بنزوله. أو المعنى فأحاط بمن استهزأ بالشرائع من الرسل عقوبة استهزائهم بالرسول المندرج في جملة الرسل {قُلْ} يا أكرم الرسل لأهل مكة: {سِيرُواْ فِى ٱلأَرْضِ} أي قل لهم: لا تغتروا بما وجدتم من الدنيا وطيباتها ووصلتم إليه من لذاتها وشهواتها بل سيروا في الأرض لتعرفوا صحة ما أخبركم الرسول عنه من نزول العذاب على الذين كذبوا الرسل في الأزمنة السالفة. {ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ} أي ثم تفكروا في أنهم كيف أهلكوا بعذاب الاستئصال فإنكم عند السير في الأرض والسفر في البلاد لا بد وأن تشاهدوا تلك الآثار فيكمل الإعتبار ويقوى الاستبصار. {قُل} يا أشرف الخلق لأهل مكة: {لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ} أي لمن الكائنات جميعاً خلقاً وملكاً وتصرفاً فإن أجابوكَ فذاك، وإلا {قُل للَّهِ} لأنه لا جواب غيره {كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ} أي أوجب على نفسه إيجاب الفضل والكرم والرحمة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم بتأخير العذاب وقبول التوبة {لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ} أي والله ليجمعنكم في القبور محشورين إلى يوم القيامة. فيجازيكم على شرككم وسائر معاصيكم، أو ليجمعنكم إلى المحشر في يوم القيامة فإن الجمع يكون إلى المكان لا إلى الزمان {لاَ رَيْبَ فِيهِ} أي في الجمع {ٱلَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} أي إن إبطال العقل باتباع الحواس والوهم والانهماك في التقليد وترك النظر أدى بهم إلى الإصرار على الكفر والامتناع عن الإيمان، وأن سبق قضاء الله بالخسران هو الذي حملهم على الامتناع من الإيمان بحيث لا سبيل لهم إليه أصلاً

{وَلَهُ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ} أي له تعالى كل ما حصل في الزمان سواء كان متحركاً أو ساكناً {وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ} فيسمع نداء المحتاجين ويعلم حاجات المضطرين {قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً} أي قل يا أشرف الخلق أغير الله أجعله معبوداً {فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ}. وعن ابن عباس قال: ما عرفت فاطر السمٰوات حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما: إني فطرتها أي ابتدأتها.

وقرىء «فاطِرِ السَّمٰوَاتِ» بالجر صفة لله أو بدل منه بدل المطابق. وبالرفع على إضمار هو، والنصب على المدح. وقرأ الزهري «فطر السموٰات» {وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ} أي وهو الرازق لغيره ولا يرزقه أحد. ويقال ولا يعان على الترزيق. {قُلْ} يا أكرم الخلق لكفار مكة: {إِنِّى أُمِرْتُ} أي من حضرة الله تعالى {أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ} فإنه صلى الله عليه وسلم سابق أمته في الإسلام. وقيل لي يا محمد {وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ} أي في أمر من أمور الدين {قُلْ إِنِّ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى} بمخالفة أمره ونهيه أي عصيان كان {عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} أي عذاباً عظيماً في يوم عظيم وهو يوم القيامة.

{مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ}. قرأ أبو بكر عن عاصم وحمزة والكسائي «يصرف» بفتح الياء وكسر الراء، والمفعول محذوف والتقدير من يصرف ربي عنه يومئذ العذاب فقد أنعم عليه.

والباقون «يصرف» بالبناء للمفعول. والمعنى أيّ شخص يصرف العذاب عنه ذلك اليوم العظيم فقد أدخله الله الجنة {وَذَلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ} أي وذلك الرحمة هو الفوز الظاهر وهو الظفر بالمطلوب {وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَٰشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ} أي وإن يصبك الله ببلية أيها الإنسان كمرض وفقر ونحو ذلك فلا رافع له إلا هو وحده {وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ} أي وإن ينزل الله بك خيراً من صحة وغنى ونحو ذلك فلا راد له غيره {فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدُيرٌ}.

روي عن ابن عباس أنه قال: أهدي للنبي صلى الله عليه وسلم بغلة أهداها له كسرى فركبها بجبل من شعر، ثم أردفني خلفه ثم سار بي ميلاً، ثم التفت إليّ فقال: «يا غلام» فقلت: لبيك يا رسول الله فقال: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إلى الله في

الرخاء يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، فقد مضى القلم بما هو كائن فلو جهد الخلائق أن ينفعوك بما لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه، ولو جهدوا أن يضروك بما لم يكتب الله عليك ما قدروا عليه، فإن استطعت أن تعمل بالصبر مع اليقين فافعل، فإن لم تستطع فاصبر، فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً. واعلم أن النصر مع الصبر وإن مع الكرب فرجاً وإن مع العسر يسراً».

{وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} بالقدرة والقوة وهذا إشارة إلى كمال القدرة {وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ} فإن أفعاله تعالى محكمة آمنة من وجوه الخلل والفساد وإنه تعالى عالم بما يصح أن يخبر به. وهذا إشارة إلى كمال العلم اه.

روى ابن عباس أن رؤساء أهل مكة قالوا: يا محمد ما وجد الله غيرك رسولاً وما نرى أحداً يصدقك، وقد سألنا اليهود والنصارى عنك فزعموا أنه لا ذكر لك عندهم بالنبوة فأرنا من يشهد لك بالنبوة، فأنزل الله تعالى قوله هذا: {قُلْ} يا أشرف الخلق لهم: {أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهٰدَةً} من الله كي يقروا بالنبوة وإن أكبر الأشياء شهادة هو الله تعالى فإن اعترفوا بذلك فذاك وإلا {قُلِ ٱللَّهِ شَهِيدٌ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ} بأني رسوله وهذا القرآن كلامه وهو معجز لأنكم فصحاء بلغاء وقد عجزتم عن معارضته فإذا كان معجزاً كان إظهار الله إياه على وفق دعواي شهادة من الله على كوني صادقاً في دعواي {وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلَغَ} أي أنزل الله إلى جبريل بهذا القرآن لأخوفكم يا أهل مكة بالقرآن ولأخوف به من بلغ إليه القرآن من الثقلين ممن يأتي بعدي إلى يوم القيامة {أَئِنَّكُمْ} يا أهل مكة {لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ} وهي الأصنام التي كنتم تعبدونها وتقولون: إنها بنات الله فإن شهدوا على ذلك {قُل} لهم: {لاَّ أَشْهَدُ} أي بما تذكرونه من إثبات الشركاء {قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ} أي بل إنما أشهد أن لا إلٰه إلا هو {وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ} أي من إشراككم بالله تعالى في العبادة الأصنام.

قال العلماء: المستحب لمن أسلم ابتداء أن يأتي بالشهادتين ويتبرأ من كل دين سوى دين الإسلام، ونصَّ الشافعي على استحباب ضم التبرؤ إلى الشهادة لأن الله

تعالى لما صرح بالتوحيد قال: {إِنَّنِى بَرِىء مّمَّا تُشْرِكُونَ}. {ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ} وهم علماء اليهود والنصارى الذين كانوا في زمن النّبيّ صلى الله عليه وسلم {يَعْرِفُونَهُ} أي يعرفون محمداً من جهة الكتابين بصفته المذكورة فيهما {كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ} بصفاتهم فإنهم كذبوا في قولهم إنا لا نعرف محمداً لما روي أن النّبيّ صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة وأسلم عبد الله بن سلام قال له عمر: إن الله أنزل على نبيه بمكة هذه الآية فكيف هذه المعرفة، قال عبد الله بن سلام: يا عمر لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابني، ولأنا أشد معرفة بمحمد مني بٱبني، فقال عمر: كيف ذلك؟ فقال أشهد أنه رسول الله حقاً ولا أدري ما تصنع النساء {ٱلَّذِينَ خَسِرُوۤاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} ومعنى هذا الخسران كما قاله جمهور المفسرين أن الله تعالى جعل لكل إنسان منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار. فإذا كان يوم القيامة جعل الله للمؤمنين منازل أهل النار في الجنة ولأهل النار منازل أهل الجنة في النار. {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً} أي لا أحد أجرأ ممن اختلق على الله كذباً كقول كفار مكة هذه الأصنام شركاء لله والله تعالى أمرنا بعبادتها. وقولهم: إن الملائكة بنات الله، ثم قولهم أمرنا الله بتحريم البحائر والسوائب وكقول اليهود والنصارى حصل في التوراة والإنجيل أن هاتين الشريعتين لا يتطرق إليهما النسخ ولا يجيء بعدهما نبي {أَوْ كَذَّبَ بِأايٰتِهِ} أي قدح في معجزات محمد صلى الله عليه وسلم وأنكر كون القرآن معجزة قاهرة بينة {إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ} أي لا يظفرون بمطالبهم في الدنيا والآخرة بل يبقون في الحرمان والخذلان {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً} أي كافة الناس وهو يوم القيامة {ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ} خاصة على رؤوس الأشهاد للتوبيخ {أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ} أي آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله تعالى {ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ} أي تزعمونها شركاء وإنها شفعاء لكم عند الله.

قال ابن عباس: وكل زعم في كتاب الله كذب {ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ} أي افتتانهم بالأوثان {إِلاَّ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} أي لم تكن عاقبة افتتانهم بشركهم إلا براءتهم منه فحلفهم أنهم ما كانوا مشركين. ومثاله أن ترى إنساناً يحب صاحباً مذموم الطريقة فإذا وقع في محنة بسببه تبرأ منه. قرأ ابن عامر وابن كثير وحفص عن

عاصم «ثم لم تكن» بالتاء الفوقية و«فتنتهم» بالرفع. وقرأ حمزة والكسائي «لم يكن» بالياء التحتية و«فتنتهم» بالنصب. وقرأ حمزة والكسائي «ربنا» بنصبه على النداء أو المدح.

والباقون بالكسر {ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ} بإنكار صدور الإشراك عنهم في الدنيا {وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} أي وكيف زال عنهم افتراؤهم بعبادة الأصنام فلم تغن عنهم شيئاً وذلك أنهم كانوا يرجون شفاعتها ونصرتها لهم {وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ} أي وبعض من أهل مكة من يستمع إلى كلامك حين تتلو القرآن {وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيۤ ءَاذَانِهِمْ وَقْراً} أي وقد ألقينا على قلوبهم أغطية كثيرة كراهة أن يفقهوا ما يستمعونه من القرآن وفي آذانهم صمماً وثقلاً مانعاً من سماعه، فمحل «أن يفقهوه» مفعول معه بحذف المضاف أو مفعول لفعل مقدر أي منعناهم أن يفقهوه مجموع القدرة على الإيمان مع الداعي إليه يوجب الفعل. فالكفر من الله تعالى وتكون تلك الداعية الجارة إلى الكفر كناناً للقلب عن الإيمان ووقراً للسمع عن استماع دلائل الإيمان {وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا} أي وأن يشاهدوا كل آية من الآيات القرآنية بسماعها كفروا بكل واحدة منها لأجل أن الله تعالى جعل على قلوبهم أكنة {حَتَّىٰ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوۤاْ} أي بلغوا بتكذيبهم الآيات إلى أنهم إذا جاءوا إليك يجادلونك {إِنْ هَٰذَآ إِلاَّ أَسَٰطِيرُ ٱلأَوَّلِينَ} أي ما هذا الذي يقول محمد إلا خرافات الأولين وكذبهم أي إن هذا الكلام من جنس سائر الحكايات المكتوبة للأولين وإذا كان هذا كذلك فلا يكون معجزاً خارقاً للعادة وجملة قوله تعالى: {يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} تفسير لقوله: {يُجَٰدِلُونَكَ} أي يناكرونك.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: حضر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو سفيان بن حرب والوليد بن المغيرة والنضر بن الحرث، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأمية وأبيّ ابنا خلف والحرث بن عامر، وأبو جهل واستمعوا إلى القرآن فقالوا للنضر وكان كثير الأخبار للقرون الماضية: يا أبا قتيبة ما يقول محمد؟ قال: ما أدري ما يقول، لكني أراه يحرك شفتيه ويتكلم بأساطير الأولين كالذي كنت أحدثكم به عن أخبار القرون الأولى. فقال أبو سفيان: إني أرى بعض ما يقول حقاً، فقال أبو جهل: كلا أي لا تقرّ

بشيء من هذا فأنزل الله تعالى هذه الآية {وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ} وأولئك الكفار ينهون الناس عن استماع القرآن لئلا يقفوا على حقيته فيؤمنوا به {وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ} أي ويتباعدون عنه بأنفسهم تأكيداً لنهيهم {وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ} أي وما يهلكون بما فعلوا من النهي والنأي إلا أنفسهم بإقبالها لأشد العذاب {وَمَا يَشْعُرُونَ} أنهم يهلكون أنفسهم ويذهبونها إلى النار بما يفعلون من الكفر والمعصية {وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ} أي ولو تبصر حالهم حين يوقفون على النار وهم يعاينونها لرأيت سوء حالهم. أو المعنى ولو تبصرهم حين يحبسون فوق النار على الصراط وهي تحتهم لرأيت سوء منقلبهم. أو المعنى ولو صرفت فكرك الصحيح لأن تتدبر حالهم حين يدخلونها لازددت يقيناً.

وقرىء «إذ وقفوا» بالبناء للفاعل أي لو تراهم حين يكونون في جوف النار وتكون النار محيطة بهم ويكونون غائصين فيها لعرفوا مقدار عذابها، وإنما صح على هذا التقدير أن يقال: وقفوا على النار لأنها دركات وطبقات بعضها فوق بعض فيصح هناك معنى الاستعلاء {فَقَالُواْ يٰلَيْتَنَا نُرَدُّ} إلى الدنيا لنؤمن {وَلاَ نُكَذِّبَ بِـأايٰتِ رَبِّنَا} أي بآياته الناطقة بأحوال النار وأهوالها الآمرة باتقائها {وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ} بها كي لا نرى هذا الموقف. قرأ ابن عامر وأبو بكر برفع «نكذب» ونصب «نكون» أي ولا يكون منا تكذيب مع كوننا من المؤمنين. وقرأ حمزة وحفص عن عاصم بنصبهما والتقدير يا ليتنا لنا رد وانتفاء تكذيب بآيات ربنا، وكون من المؤمنين فهذه الأشياء الثلاثة متمناة بقيد الاجتماع.

وقرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير والكسائي برفعهما واتفقوا على الرفع في قوله «نرد». والمعنى أنهم تمنوا الرد إلى دار الدنيا وعدم تكذيبهم بآيات ربهم وكونهم من المؤمنين. أو المعنى يا ليتنا نرد غير مكذبين وكائنين من المؤمنين فيكون تمني الرد مقيداً بهاتين الحالتين {بَلْ بَدَا لَهُمْ مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ} أي ليس التمني الواقع منهم لأجل كونهم راغبين في الإيمان بل لأنه ظهر لهم في موقفهم ما كانوا يخفونه في الدنيا من تكذيبهم بالنار فإن التكذيب بالشيء إخفاء له بلا شك أي فلخوفهم منها ومن العقاب الذي عاينوه قالوا ما قالوا {وَلَوْ رُدُّواْ لَعَٰدُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ} أي ولو ردهم الله تعالى من موقفهم ذلك

إلى الدنيا كما سألوا وغاب عنهم ما شاهدوه من الأهوال لم يحصل منهم فعل الإيمان وترك التكذيب بل كانوا يستمرون على الكفر والتكذيب {وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ} في تمنيهم ووعدهم بفعل الإيمان وترك التكذيب فإن دينهم الكذب، لأنه قد جرى عليهم قضاء الله تعالى في الأزل بالشرك {وَقَالُوۤاْ} أي كفار مكة {إِنْ هِىَ إِلاَّ حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا} أي ما حياتنا إلا حياتنا الدنيا التي نحن فيها {وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ} بعد أن فارقنا هذه الحياة وليس لنا بعد هذه الحياة ثواب وعقاب {وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ} أي حبسوا عند ربهم لأجل السؤال كما يوقف العبد الجاني بين يدي سيده للعقاب لرأيت أمراً عظيماً، والمعنى وقفوا على جزاء ربهم أي على ما وعدهم ربهم من عذاب الكافرين وثواب المؤمنين، وعلى ما أخبرهم به من أمر الآخرة {قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا} أي البعث بعد الموت والثواب والعقاب {بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا} إنه لحق. وذلك إقرار مؤكد باليمين لانجلاء الأمر غاية الانجلاء وهم يطمعون في نفع ذلك الإقرار وينكرون الإشراك فيقولون والله ربنا ما كنا مشركين {قَالَ فَذُوقُواْ ٱلعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ} أي بسبب كفركم وجحدكم في الدنيا بالبعث بعد الموت {قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ} أي أنكروا البعث والقيامة {حَتَّىٰ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً} أي أنهم كذبوا ذلك إلى أن ظهرت القيامة باغتة فلا يعلم أحد متى يكون مجيئها وفي أي وقت يكون حصولها {قَالُواْ يٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا} أي يا ندامتنا على تفريطنا في تحصيل الزاد للساعة في الدنيا {وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ} أي والحال أنهم يحملون ثقل ذنوبهم عليهم أي إنهم يقاسون عذاب ذنوبهم مقاساة ثقل عليهم فلا تفارقهم ذنوبهم.

وقال قتادة والسدي: إن المؤمن إذا خرج من قبره استقبله شيء هو أحسن الأشياء صورة وأطيبها ريحاً ويقول: أنا عملك الصالح طالما ركبتك في الدنيا فاركبني فذلك قوله تعالى: {يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْداً} (مريم: 58) أي ركباناً. وأن الكافر إذا خرج من قبره استقبله شيء هو أقبح الأشياء صورة وأخبثها ريحاً فيقول: أنا عملك الفاسد طالما ركبتني في الدنيا فأنا أركبك اليوم، فذلك قوله تعالى: {وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ} {أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ} أي بئس شيئاً يحملونه آثامهم {وَمَا

ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ} أي وما اللذات والمستحسنات الحاصلة في هذه الدنيا إلا فرح يشغل النفس عمّا تنتفع به، وباطل يصرف النفس عن الجد في الأمور إلى الهزل {وَلَلدَّارُ ٱلآٰخِرَةُ} أي الجنة أو التمسك بعمل الآخرة أو نعيم الآخرة {خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ} من المعاصي والكبائر.

وقرأ ابن عامر «ولدار الآخرة» بإضافة دار إلى الآخرة. {أَفَلاَ تَعْقِلُونَ}. وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالتاء على الخطاب أي قل لهم ألا تتفكرون أيها المخاطبون فلا تعقلون أن الدنيا فانية والآخرة باقية. وقرأ الباقون بالباء على الغيبة أي أيغفل الذين يتقون فلا يعقلون أن الدار الآخرة خير لهم من هذه الدار فيعملون لما ينالون به الدرجة الرفيعة والنعيم الدائم فلا يفترون في طلب ما يوصل إلى ذلك {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ} إنهم لا يؤمنون بك ولا يقبلون دينك وشريعتك أو يقولون إنك ساحر وشاعر وكاهن ومجنون. قرأ نافع «ليحزنك» بضم الياء وكسر الزاي. والباقون بفتح الياء وضم الزاي {فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ} قرأ نافع والكسائي بسكون الكاف. والباقون بفتحها وتشديد الذال أي لا يجدونك كاذباً لأنهم يعرفونك بالصدق والأمانة ولا ينسبونك إلى الكذب بالاعتقاد واللسان {وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ} أي ولكن جحدوا صحة نبوتك ورسالتك أو المعنى أنهم يقولون في كل معجزة أنها سحر وينكرون دلالة المعجزة على الصدق على الإطلاق. أو المعنى إن القوم ما كذبوك وإنما كذبوني لأنك رسولي كقول السيد لعبده وقد أهانه بعض الناس أيها العبد إنه ما أهانك وإنما أهانني. والمقصود تعظيم الشأن لا نفي الإهانة عن العبد ونظيره قوله تعالى: {إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ} (الفتح: 01).روي أن الحرث بن عامر من قريش قال: يا محمد والله ما كذبتنا قط ولكنا إن اتبعناك نتخطف من أرضنا فنحن لا نؤمن بك لهذا السبب.

وروي أن الأخنس بن شريق قال لأبي جهل: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب فإنه ليس عندنا أحد غيرنا؟ فقال له: والله إن محمداً لصادق وما كذب قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والنبوة فماذا لسائر قريش، فنزلت هذه الآية. وعن علي بن أبي طالب أن أبا جهل قال للنبي صلى الله

عليه وسلم: إنا لا نكذبك فإنك عندنا لصادق ولكنا نكذب ما جئتنا به، فنزلت هذه الآية: {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰ أَتَٰهُمْ نَصْرُنَا} أي ولقد كذب الرسل قومهم كما كذبك قومك فصبروا على تكذيبهم وإيذائهم لهم حتى أتاهم النصر بهلاك قومهم، فاصبر يا أشرف الخلق كما صبروا تظفر كما ظفروا، بل أنت أولى بالتزام الصبر لأنك مبعوث إلى جميع العالمين {وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ} بالنصرة فإن وعد الله إياك بالنصر حق وصدق ولا يمكن تطرق الخلف والتبديل إليه {وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِ ٱلْمُرْسَلِينَ} أي خبرهم في القرآن كيف كذبهم قومهم وكيف أنجيناهم ودمرنا قومهم {وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقاً فِى ٱلأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِأايَةٍ} أي وإن كان شق عليك إعراضهم عن الإيمان بما جئت به من القرآن، وأحببت أن تجيبهم إلى ما سألوه فإن قدرت أن تتخذ منفذاً فيه إلى جوف الأرض، أو مصعداً ترتقي فيه إلى السماء فتأتيهم بآية مما اقترحوه عليك من تحت الأرض أو من فوق السماء فلتفعل.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف أتى النّبيّ صلى الله عليه وسلم في نفر من قريش فقالوا: يا محمد ائتنا بآية من عند الله كما كانت الأنبياء تفعل فإنا نصدق بك. فأبى الله أن يأتيهم بآية مما اقترحوه فأعرضوا عنه صلى الله عليه وسلم فشق ذلك عليه لشدة حرصه على إيمان قومه، فنزلت هذه الآية. والمقصود من هذا الكلام أن يقطع الرسول طمعه عن إيمانهم وأن لا يتأذى بسبب إعراضهم عن الإيمان وإقبالهم على الكفر وهذا دليل على مبالغة حرصه صلى الله عليه وسلم على إسلام قومه إلى حيث لو قدر على أن يأتي بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لفعل رجاء لإيمانهم {وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ} أي ولو شاء الله تعالى جمعهم على الهدى لجمعهم عليه بأن يوفقهم للإيمان فيؤمنوا معكم ولكن لم يشأ لعدم صرف اختيارهم إلى جانب الهدى مع تمكنهم التام منه في مشاهدتهم للآيات الداعية إليه {فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ} أي فلا تكونن بالميل إلى إتيان اقتراحاتهم من الجاهلين بعدم تعلق مشيئته تعالى بإيمانهم لعدم توجههم إليه لخروج

الإيمان عن الحكمة المؤسسة على الاختيار. أو المعنى ولا تجزع على إعراضهم عنك ولا يشتد تحزنك على تكذيبهم بك فإن فعلت ذلك فتقارب حالك من حال الجاهلين الذين لا صبر لهم {إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ} أي إنما يقبل دعوتك إلى الإيمان الذين يسمعون ما يلقى إليهم سماع تفهم،
وإنما يطيعك من يعقلون الموعظة دون الموتى الذين هؤلاء منهم. {وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} أي والموتى يبعثهم الله بعد الموت ثم يوقفون بين يديه للحساب والجزاء. فالله تعالى هو القادر على إحياء قلوب هؤلاء الكفار بحياة الإيمان وأنت لا تقدر عليه {وَقَالُواْ} أي كفار مكة الحرث بن عامر وأصحابه وأبو جهل بن هشام والوليد بن المغيرة وأمية وأبي ابنا خلف والنضر بن الحرث {لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ} أي هلا أنزل على محمد من ربه معجزة دالة على نبوته مثل فلق البحر وإظلال الجبل وإحياء الموتى، وإنزال الملائكة وإسقاط السماء كسفاً. {قُلْ} لهم يا أكرم الرسل: {إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ ءايَةً} أي أن يوجد خوارق للعادة كما طلبوا {وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} أي لا يدرون أن في تنزيلها قلعاً لأساس التكليف المبني على قاعدة الاختيار، وأن الله تعالى لو أعطاهم ما طلبوه من المعجزات القاهرة فإن لم يؤمنوا عند ظهورها لاستحقوا عذاب الاستئصال ولم يبق لهم عذر ولا علة كما هو سنة الله فاقتضت رحمة الله صونهم عن هذا البلاء فما أعطاهم هذا المطلوب رحمة منه تعالى عليهم وإن كانوا لا يعلمون كيفية هذه الرحمة. {وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَٰلُكُمْ} أي وما من دابة تمشي في الأرض أو تسبح في الماء ولا طائر من الطيور يطير في ناحية من نواحي الجو إلا طوائف أمثالكم في ابتغاء الرزق وتوقي المهالك، وفي أنها تعرف ربها وتوحده وفي أنها يفهم بعضها عن بعض، وفي أنها تبعث بعد الموت للحساب.
روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من قتل عصفوراً عبثاً جاء يوم القيامة يعج إلى الله يقول: يا رب إن هذا قتلني عبثاً لم ينتفع بي ولم يدعني آكل من خشاش الأرض» وروي عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يقتص للجماء من القرناء». والمقصود من هذه الآية

الدلالة على كمال قدرته تعالى وشمول علمه وسعة تـدبيره ليكون كالدليل على أنه تعالى قادر على أن ينزل آيـة {مَّا فَرَّطۡنَا فِى ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَىۡءٍۚ} أي ما تركنا في القرآن شـيئاً من الأشياء المهمة أي أن القرآن وافٍ ببيان جميع الأحكـام فليس لله على الخلق بعد ذلك تكليف آخر وأن القرآن دل على أن الإجماع وخبر الواحد والقياس وحجة فـي الشـريعة فكل ما دل عليه أحد هذه الأصـول الثلاثـة كـان ذلـك فـي الحقيقة موجوداً في القرآن.

روي أن ابن مسعود كان يقول: ما لي لا ألعن من لعنـه اللـه فـي كتـابهٰ فقـرأت امـرأة جميـع القـرآن فـأتته فقالت: يا ابن أم عبد تلوت البارحـة مـا بيـن الـدفتين فلـم أجـد فيـه لعـن الواشـمة والمستوشـمة، فقـال: لـو تلـوتيه لوجـدتيه، قـال اللـه تعـالى: {وَمَـا ءَاتَىٰكُـمُ ٱلرَّسُـولُ فَخُـذُوهُ} (الحشر: 7) وإن مما أتانا به رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسلم أنه قال: «لعن الله الواشمة والمستوشمة». وذكـر أن الشافعي كان جالساً في المسجد الحرام فقال: لا تسـألوني عن شيء إلا أجبتكم فيه من كتاب الله تعالى، فقال رجل: ما تقول في المحرم إذا قتل الزنبور؟ فقال: لا شيء عليه، فقال: أين هذا من كتاب الله؟ فقال: قال الله تعـالى: {وَمَـا ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ} (الحشـر: 7) وقـال صـلى اللـه عليـه وسلم: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين مـن بعـدي». وقال عمر رضي الله عنه: للمحرم وقتل الزنبور.

وروي أن أبا العسيف قال للنبيّ صلى الله عليـه وسلم: اقضِ بيننا بكتاب الله فقال صلى اللـه عليـه وسـلم: «والذي نفسي بيده لأقضين بينكمـا بكتـاب اللـه» ثـم قضـى بالجلد والتغريب على العسيف وبالرجم علـى المـرأة، وهـذا يدل على أن كل ما حكم به النّبيّ صلى الله عليـه وسـلم هو عين كتاب الله لأنه ليس فـي نـص الكتـاب ذكـر الجلـد والتغريب {ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ} فإن اللـه تعـالى يحشـر الدواب والطيور يوم القيامة بمجرد الإرادة ومقتضى الإلهية. وروي أن رسول الله صلى الله عليـه وسـلم قـال: «لتـؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجماء مـن القرناء». قال المفسرون: إنه تعالى بعد توفير العوض عليهـا يجعلها تراباً وعند هذا {يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِـى كُنـتُ تُرَٰباً} (النبأ: 04).

{وَ لَّذِينَ كَذَّبُواْ بِأايٰتِنَا} التي هي من القرآن {صُمٌّ} لا يسمعونها سمع تدبر وفهم فلذلك يسمونها أساطير الأولين {وَبُكْمٌ} لا يقدرون على أن ينطقوا بالحق ولذلك لا يستجيبون دعوة الرسول بها {فِى ٱلظُّلُمٰتِ} أي في ضلالات الكفر والجهل والعناد فلا يهتدون سبيلاً {مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ} أي من يشاء الله إضلاله يخلق الله الضلال فيه ويمته على الكفر فيضل يوم القيامة عن طريق الجنة وعن وجدان الثواب {وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ} أي ومن يشأ أن يجعله على طريق يرضاه وهو الإسلام يجعله عليه ويهده إليه ويمته عليه فلا يضل من مشى إليه ولا يزل من ثبت قدمه عليه {قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صٰدِقِينَ} أي قل يا أكرم الرسل لكفار مكة: يا أهل مكة أخبروني إن أتاكم عذاب الله في الدنيا كالغرق أو الخسف أو المسخ، أو نحو ذلك أو أتاكم العذاب عند قيام الساعة أترجعون إلى غير الله في دفع ذلك البلاء؟ أو ترجعون فيه إلى الله تعالى إن كنتم صادقين في أن أصنامكم آلهة فأجيبوا سؤالي؟ أو المعنى إن كنتم قوماً صادقين فأخبروني أإلهاً غير الله تدعون إلخ {بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَآءَ} أي إنكم لا ترجعون في طلب دفع البلية إلا إلى الله تعالى فيكشف الضر الذي من أجله دعوتم بمحض مشيئته {وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ} أي وتتركون الأصنام ولا تدعونهم لعلمكم أنها لا تضر ولا تنفع {وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنٰهُمْ بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ} أي وبالله لقد أرسلنا إلى أمم كثيرة كائنة من زمان قبل زمانك رسلاً فخالفوهم فعاقبناهم بشدة الفقر والخوف من بعضهم والأمراض والأوجاع {لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ} أي لكي يدعوا الله تعالى في كشفها بالتذلل ويتوبوا إليه من كفرهم ومعاصيهم {فَلَوْلآ} أي فهلا {إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} من الكفر والمعاصي أي فلم يؤمنوا حين جاءهم عذابنا ولكن ظهر منهم الكفر ووسوس لهم الشيطان إن حال الدنيا هكذا تكون شدة ثم نعمة فلم يخطروا ببالهم أن ما أصابهم من الشدائد ما أصابهم إلا لأجل عملهم الفاسد {فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَىْءٍ} أي فلما انهمكوا في المعاصي وتركوا ما

وعظوا به من الشدائد فتحنا عليهم فنون النعماء على منهاج الاستدراج {حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُمْ بَغْتَةً} أي حتى إذا اطمأنوا بما فتح لهم وبطروا بأن ظنوا أن الذي نزل بهم من الشدائد ليس على سبيل الانتقام من الله وأن تلك الخيرات باستحقاقهم نزل بهم عذابنا فجأة ليكون عليهم أشد وقعاً {فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ} أي متحزنون غاية الحزن منقطع رجاؤهم من كل خير {فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ} أي قطع غابر المشركين أي استؤصلوا بالهلاك بسبب ظلمهم بإقامة المعاصي مقام الطاعات {وَٱلْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ} على استئصالهم بالنكال فإن إهلاك الكفار والعصاة من حيث إنه تخليص لأهل الأرض من شؤم عقائدهم الفاسدة وأعمالهم الخبيثة نعمة جليلة مستحقة للحمد {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ} أي قل يا أكرم الخلق لأهل مكة: يا أهل مكة أخبروني إن أزال الله سمعكم وأبصاركم وعقولكم أي فرد من الآلهة الثابتة بزعمكم غير الله يأتيكم بذلك الذي أزيل؟ { ٱنظُرْ} يا أكرم الرسل {كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلآيَٰتِ} أي كيف نكررها متغيرة من نوع إلى نوع آخر فتارة بترتيب المقدمات العقلية، وتارة بطريق الترغيب والترهيب، وتارة بالتنبيه والتذكير بأحوال المتقدمين فكل واحد يقوّي ما قبله في الإيصال إلى المطلوب {ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ} أي يعرضون عن تلك الآيات وثم لاستبعاد إعراضهم عنها بعد ذكرها على الوجوه المختلفة {قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ} أي أخبروني يا أهل مكة {إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ} أي عذابه الخاص بكم {بَغْتَةً} أي فجأة بأن يجيئهم من غير سبق علامة تدلهم على مجيء ذلك العذاب {أَوْ جَهْرَةً} بأن يجيئهم مع سبق علامة تدل عليه فالعذاب وقع بهم وقد عرفوه حتى لو أمكنهم الاحتراز عنه لتحرزوا منه {هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ} أي هل يهلك بذلك العذاب غيركم ممن لا يستحقه {وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ} بالثواب على الطاعات {وَمُنذِرِينَ} بالعقاب على المعاصي ولا قدرة لهم على إظهار المعجزات بل ذلك مفوض إلى مشيئة الله تعالى {فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} أي فمن قبل قول المرسلين وأتى بعمل القلب الذي هو الإيمان وبعمل الجسد الذي هو الإصلاح فلا خوف عليهم من العذاب الذي أنذروه دنيوياً

كان أو أخروياً ولا هم يحزنون بفوات ما بشروا به من الثواب العاجل والآجل {وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِأايٰتِنَا} وهي ما ينطق به الرسل عند التبشير والإنذار ويبلغونه إلى الأمم {يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ} أي يصيبهم العذاب الذي أنذروه {بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ} أي بسبب فسقهم وخروجهم عن الطاعة {قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ}.

واعلم أن الكفار طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوسع خيرات الدنيا وأن يخبر عما يقع في المستقبل من المصالح والمضار، وطعنوا فيه في أكل الطعام والمشي في السوق، وفي تزوجه للنساء فأمر الله تعالى أن ينفي عن نفسه أموراً ثلاثة تواضعاً لله تعالى واعترافاً له بالعبودية وأن يقول لهم: إنما بعثت مبشراً ومنذراً ولا أدعي كوني موصوفاً بالقدرة اللائقة بالله تعالى، وأن خزائن الله مفوّضة إليّ أتصرف فيها كيفما أشاء، وأعطيكم منها ما تريدون. ولا أدعي كوني موصوفاً بعلم الله تعالى فأخبركم بما تريدون، ولا أدعي أني ملك حتى تكلفوني من الخوارق للعادات ما لا يطيق به البشر وحتى تعدوا عدم اتصافي بصفات الملائكة قادحاً في أمري فتنكرون قولي، وتجحدون أمري، وما أخبركم من غيب إلا بوحي من الله أنزله علي {قُلْ} لهم: {هَلْ يَسْتَوِى ٱلأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ} أي هل يكونان سواء من غير مزية فإن قالوا: نعم، كابروا الحس وإن قالوا: لا، قيل: فمن تبع هذه الآيات الجليات فهو البصير ومن أعرض فهو الأعمى {أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ} أي ألا تسمعون هذا الكلام الحق فلا تتفكرون فيه، نزلت هذه الآية من قوله: {قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ} في أبي جهل وأصحابه الحرث وعيينة {وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوۤاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِّن دُونِهِ وَلِىٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} أي وأنذر يا أشرف الرسل بما أوحي إليك من يجوزون الحشر ويرجى منهم التأثر بالتخويف غير منصورين بقريب ولا مشفوعاً لهم من جهة أنصارهم على زعمهم من غير الله تعالى سواء كانوا جازمين بأصل الحشر كالمؤمنين العاصين وأهل الكتاب المترددين في شفاعة آبائهم الأنبياء وبعض المشركين المعترفين بالبعث المترددين في شفاعة الأصنام، أو مترددين في أصل الحشر وفي شفاعة الآباء والأصنام معاً كبعض الكفرة

الـذين يعلـم مـن حـالهم أنهـم إذا سـمعوا بحـديث البعـث يخـافون أن يكـون حقـاً فيهلكـوا لكـي ينتهـوا عـن الكفـر والمعاصـي، وأمـا المنكـرون للحشـر بالكليـة والقـائلون بـه القاطعون بشفاعة آبائهم أو بشفاعة الأصنام فهـم خـارجون ممن أمر بإنذارهم {وَلاَ تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَـدْعُونَ رَبَّهُـمْ بِـٱلْغَـدَاةِ وَ ٱلْعَشِـىِّ} أي الـذين يعبـدون ربهـم بالصـلوات الخمـس أو يـذكرون ربهـم طرفـي النهـار {يُرِيـدُونَ وَجْهَـهُ} أي يريـدون بذلك محبة الله تعالى ورضاه أي مخلصين في ذلك.

روي أنه جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصـن الفـزاري، وعبـاس بـن مـرداس وهـم مـن المؤلفـة قلوبهم فوجـدوا النّـبيّ صـلى اللـه عليـه وسـلم جالسـاً مـع ناس من ضعفاء المؤمنين كعمار بـن ياسـر وصـهيب، وبلال وخباب وابن مسعود، وسلمان الفارسي ومهجع، وعـامر بـن فهيرة فلما رأوهم حوله حقروهم وقالوا: يا رسـول اللـه لـو جلسـت فـي صـدر المجلـس وأبعـدت عنـك هـؤلاء ورائحـة جبابهم لجالسناك وأخذنا عنك، فقال النـبي: «مـا أنـا بطـارد المـؤمنين»، قـالوا فإنـا نحـب أن تجعـل لنـا منـك مجلسـاً تعرف به العرب فضلنا فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا مع هؤلاء الأعبد، فإذا نحـن جئنـاك فـأقمهم عنـا، فـإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت. قال: «نعم»، قالوا فاكتب لنا عليـك بـذلك كتابـاً فـأتى بالصـحيفة ودعـا عليـاً ليكتـب، فنزل جبريل بهذه الآية فألقى رسول الله صـلى اللـه عليـه وسلم الصحيفة، وقال مجاهد: قالت قريـش: لـولا بلال وابـن أم عبد لبايعنا محمداً فأنزل الله تعالى هذه الآية. وروي أن ناساً من الفقراء كـانوا مـع النّـبيّ صـلى اللـه عليـه وسـلم فقال: نـاس مـن الأشـراف لـه صـلى اللـه عليـه وسـلم إذا صلينا فأخر هؤلاء فليصـلوا خلفنـا؟ فنزلـت هـذه الآيـة: {مَـا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِـنْ حِسَـابِكَ عَلَيْهِـمْ مِّـن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُـمْ فَتَكُـونَ مِـنَ ٱلظَّلِمِيـنَ} أي مـا عليـك مـن حسـاب رزق هـؤلاء الـذين يـدعون ربهـم بالغـداة والعشـي شيء فتملهم وتبعدهم، ولا من حساب رزقك عليهـم شـيء وإنما الرازق لهم ولك هو الله تعالى فدعهم يكونوا عنـدك، ولا تطردهم فتكون من الظالمين لنفسك بهذا الطرد ولهم، لأنهم استحقوا مزيد التقريـب. وقيـل: إن الكفـار طعنـوا فـي إيمان أولئـك الفقـراء وقـالوا: يـا محمـد إنهـم إنمـا اجتمعـوا عنـدك وقبلـوا دينـك لأنهـم يجـدون بهـذا السـبب مـأكولاً

وملبوساً عندك، وإلا فهم فارغون عن دينك فقال الله تعالى: إن كان الأمر كما يقولون فما يلزمك إلا اعتبار الظاهر، وإن كان لهم باطن غير مرضي عند الله فحسابهم عليه لازم لهم لا يتعدى إليك، كما أن حسابك عليك لا يتعدى إليهم {وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ} أي ومثل ذلك الفتون المتقدم فتناً بعض هذه الأمة ببعض وكل أحد مبتلى بضده فأولئك الكفار الرؤساء الأغنياء كانوا يحسدون فقراء الصحابة على كونهم سابقين في الإسلام مسارعين إلى قبوله فقالوا: لو دخلنا في الإسلام لوجب علينا أن ننقاد لهؤلاء الفقراء المساكين وأن نعترف لهم بالتبعية فامتنعوا من الدخول في الإسلام لذلك، واعترضوا على الله في جعل أولئك الفقراء رؤساء في الدين، وأما فقراء الصحابة فكانوا يرون أولئك الكفار في الراحات والمسرات والطيبات والخصب والسعة، فكانوا يقولون: كيف حصلت هذه الأحوال لهؤلاء الكفار وبالجملة؟ فصفات الكمال مختلفة متفاوتة محبوبة لذاتها موزعة على الخلق فلا تجتمع في إنسان واحد ألبتة فكل أحد يحسد صاحبه على ما آتاه من الله من صفات الكمال {لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَآ} بالإيمان بالله ومتابعة الرسول وغرضهم بذلك إنكار وقوع المن رأساً وهذه اللام لام كي والتقدير ومثل ذلك الفتون فتناً ليقولوا: هذه المقالة امتحاناً منا، وقيل: إنها لام الصيرورة والمعنى وكذلك فتناً بعضهم ببعض ليصيروا أو ليشكروا فكان عاقبة أمرهم أن قالوا: أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا؟ قال: تعالى رداً عليهم: {أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ} لنعمه حتى تستبعدوا إنعامه عليهم. وفي هذا الاستفهام التقريري إشارة إلى أن الضعفاء عارفون بحق نعم الله تعالى في تنزيل القرآن وفي التوفيق للإيمان شاكرون له تعالى على ذلك وتعريض بأن القائلين بتلك المقالة بمعزل من ذلك كله {وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ} قيل: نزلت هذه الآية في أهل الصفة الذين سأل المشركون رسول الله عليه السلام طردهم فأكرمهم الله تعالى بهذا الإكرام فإن الله تعالى نهى رسوله أولاً عن إبعادهم، ثم أمره بتبشيرهم بالسلامة عن كل مكروه في الدنيا والرحمة في الآخرة {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ} أي أوجب على ذاته المقدسة الرحمة بطريق الفضل والكرم تبشيراً لهم بسعة رحمته تعالى

وبنيل المطالب {أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوۤءًا} أي ذنباً {بِجَهَالَةٍ} بتعمد بسبب الشهوة وكان جاهلاً بمقدار ما يستحقه من العقاب وما يفوته من الثواب {ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ} أي ندم من بعد عمل المعصية {وَأَصْلَحَ} عمله بالتوبة منه تداركاً وعزماً على أن لا يعود إليه أبداً {فَأَنَّهُ} أي الله {غَفُورٌ} بسبب إزالة العقاب {رَّحِيمٌ} بسبب إيصال الثواب الذي هو النهاية في الرحمة {وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ ٱلآيَـٰتِ} أي كما فصلنا لك في هذه السورة دلائلنا على صحة التوحيد والنبوة والقضاء والقدر فكذلك نفصل لك حجتنا في تقرير كل حق ينكره أهل الباطل {وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ}. قرأ نافع «لتستبين» بالتاء خطاب للنبي و«سبيل» بالنصب. أي ولتستوضح أنت يا محمد سبيل المشركين فتعاملهم بما يليق بهم. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم «ليستبين» بالياء و«سبيل» بالرفع. والباقون بالتاء و«سبيل» بالرفع. وقوله و«ليستبين» عطف على المعنى كأنه قيل: ليظهر الحق وليتضح سبيلهم نفعل ما نفعل من التفصيل.

{قُلْ} يا أشرف الخلق للمصرّين على الشرك {إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ} أي إني نهيت في القرآن عن عبادة ما تعبدونه من دون الله وهو الأصنام {قُلْ لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ} في عبادة الأحجار وهي أخس مرتبة من الإنسان بكثير فإنهم كانوا ينحتون تلك الأصنام وإنما يعبدونها بناء على محض الهوى لا على سبيل الحجة فإن اشتغال الأشرف بعبادة الأخس أمر يدفعه صريح العقل {قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً} أي إن اتبعت أهواءكم {وَمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ} أي ما أنا في شيء من الهدى حين أكون في عدادهم {قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ} أي حجة واضحة تفصل بين الحق والباطل وهي الوحي{مِّن رَّبِّى} في أنه لا معبود سواه {وَكَذَّبْتُم بِهِ} أي بربي حيث أشركتم به غيره {مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ} أي من العذاب أي ليس أمره بمفوض إلي ف«ما» الأولى نافية، و«ما» الثانية موصولة، وسبب نزول هذه الآية أن النّبيّ صلى الله عليه وسلم كان يخوفهم بنزول العذاب عليهم بسبب هذا الشرك، وكان النضر بن الحرث وأصحابه يستعجلونه بقولهم متى هذا الوعد إن كنتم صادقين بطريق الاستهزاء أو بطريق الإلزام على زعمهم فقال تعالى: قل يا أشرف الخلق ليس ما

تستحلونه من العذاب الموعود في القرآن وتجعلون تأخره ذريعة إلى تكذيبه في حكمي وقدرتي حتى أجيء به وأظهر لكم صدقه {إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ} أي ما الحكم في نزول العذاب تعجيلاً وتأخيراً إلا الله {يَقُصُّ ٱلْحَقَّ}.

قرأ ابن كثير ونافع وعاصم «يقص» بالصاد المشددة، وضم القاف، أي ينبىء الحق ويقول الحق لأن كل ما أخبر الله به فهو حق. وقرأ الباقون «يقض» بسكون القاف وكسر الضاد بغير ياء لسقوطها في اللفظ. أي يقضي القضاء الحق أو يصنع الحق لأن كل شيء صنعه الله فهو حق {وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ} أي أفضل القاضين {قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِىَ ٱلأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ} أي قل يا أكرم الرسل لو أن في قدرتي ما تطلبون به قبل وقته من العذاب الذي ورد به الوعيد بأن يكون أمره مفوضاً إلي من الله تعالى لفصل ما بيني وبينكم بأن نزل عليكم ذلك عقب استعجالكم بقولكم: متى هذا الوعد واسترحت {وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ} أي أعلم بحال المشركين وبأنهم مستحقون للإمهال بطريق الاستدراج فوقع بالنضر بن الحرث العذاب الذي سأل فقتل صبراً يوم بدر {وَعِندَهُ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ} أي علم الغيب لأن المفاتيح هي التي يتوصل بها إلى ما في الخزائن فمن علم كيف يفتح بها ويتوصل بها إلى ما فيها فهو عالم. أو المعنى وعنده تعالى خاصة خزائن الغيب أي قدرة كاملة على كل الممكنات من المطر والنبات، والثمار ونزول العذاب {لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ} أي لا يعلم مفاتح الغيب بنزول العذاب الذي تستعجلون به إلا هو فالعذاب ليس مقدوراً لي حتى أعجله لكم ولا معلوماً لدي حتى أخبركم بوقت نزوله بل هو مما يختص به تعالى قدرة وعلماً {وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ} من الموجودات مفصلة على اختلاف أجناسها وأنواعها وتكثر أفرادها، وإنما قدم ذكر البر لأن الإنسان قد شاهد أحوال البر وكثرة ما فيه من المدن والقرى والمفاوز، والجبال والتلال، والحيوان والنبات والمعادن، وأما البحر فإنما أخر ذكره لأن إحاطة العقل بأحواله أقل لكن الحس يدل على أن عجائب البحر أكثر، وأجناس المخلوقات أعجب وأن طول البحر وعرضه أعظم {وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ} من الشجر والنجم {إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ} أي وما حبة ملقاةَ في

ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس من كل شيء إلا في علم الله تعالى، فإذا سمع الإنسان أن الحبة الصغيرة الملقاة في مواضع متسعة يبقى أكبر الأجسام مخفياً فيها وأن الماء والنابت والحي وخلافها لا تخرج عن علم الله تعالى، صارت هذه الأمثلة منبهة على معنى قوله تعالى: {وَعِندَهُ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ}

وقيل: المراد بالكتاب المبين هو اللوح المحفوظ إنما كتب هذه الأحوال في اللوح المحفوظ، لتقف الملائكة على نفاذ علم الله تعالى في المعلومات فيكون في ذلك عبرة تامة للملائكة الموكلين باللوح المحفوظ لأنهم يقابلون به ما يحدث في صحيفة هذا العالم فيجدونه موافقاً له {وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّٰكُم بِٱلَّيْلِ} أي ينيمكم في الليل وإنما صح إطلاق لفظ الوفاة على النوم لأن ظاهر الجسد صار معطلاً عن بعض الأعمال عند النوم كما أن جملة البدن صارت معطلة عن كل الأعمال عند الموت فحصل بين النوم والموت مشابهة من هذا الاعتبار {وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ} أي يعلم ما كسبتم من أعمال الجوارح في النهار {ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ} أي يوقظكم في النهار {لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى} أي لكي يتم أجل معين عند الله لكل فرد فرد بحيث لا يكاد يتجاوز أحد ما لا عين له طرفة عين {ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ} أي رجوعكم بالموت {ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} أي يخبركم بمجازاة أعمالكم التي كنتم تعملونها في الليل والنهار من الخير والشر {وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} أي وهو الغالب المتصرف في أمور عباده يفعل بهم ما يشاء إيجاداً وإعداماً، وإحياء وإماتة وإثابة وتعذيباً إلى غير ذلك فالممكنات كلها مقهورة تحت قهر الله تعالى مسخرة تحت تسخير الله تعالى {وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً} أي ملائكة يحفظون أعمالكم ويكتبونها في صحائف تقرأ عليكم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد {حَتَّىٰ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا} أي حتى إذا انتهت مدة أحدكم وانتهى حفظ الحفظة وجاءه أسباب الموت قبضه ملك الموت وأعوانه {وَهُمْ} أي هؤلاء الرسل {لاَ يُفَرِّطُونَ} أي لا يؤخرون الميت طرفة عين.

وقرىء بسكون الفاء أي لا يجاوزون ما حدّ لهم بزيادة أو نقصان {ثُمَّ رُدُّوۤاْ إِلَىٰ ٱللَّهِ} أي ثم رد جميع البشر بعد البعث بالحشر إلى حكم الله وجزائه في موقف

الحساب. وقيل: المعنى ثم يرد أولئك الملائكة فإنهم يموتون كما يموت بنو آدم {مَوْلَٰهُمُ ٱلْحَقِّ} أي مالكهم الذي لا يقضي إلا بالعدل {أَلاَ لَهُ ٱلْحُكْمُ} يومئذ صورة ومعنى {وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ} يحاسب جميع الخلائق في أقصر زمان لا يشغله كلام عن كلام ولا حساب عن حساب وفي الحديث: «إن الله تعالى يحاسب الكل في مقدار حلب شاة» أي وذلك لأنه تعالى لا يحتاج إلى فكر وعد.

{قُلْ} يا أكرم الخلق لكفار مكة: {مَن يُنَجِّيكُمْ مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَ ٱلْبَحْرِ} أي من شدائدهما الهائلة التي تبطل الحواس وتدهش العقول {تَدْعُونَهُ} والضمير عائد لمن وهذه الجملة في محل نصب على الحال إما من مفعول ينجيكم أي من ينجيكم منها داعين إياه، وإما من فاعله أي من ينجيكم منها مدعواً من جهتكم {تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً} أي تدعونه دعاء إعلان وإخفاء، أو تدعونه متضرعين ومخلصين بقلوبكم قائلين {لَّئِنْ أَنجَٰنَا مِنْ هَٰذِهِ} أي الأهوال والشدائد {لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ} أي من المؤمنين المداومين على الشكر لأجل هذه النعمة.

وقرأ عاصم في رواية أبي بكر «خفية» بكسر الخاء. والباقون بالضم وعلى هذا الاختلاف في سورة الأعراف. وقرأ الأعمش و«خيفة» بكسر الخاء فبعده الياء الساكنة من الخوف أي مستكيناً أو دعاء خوف والآية تدل على أن الإنسان يأتي عند حصول الشدائد بأمور: أحدها: الدعاء.وثانيها: التضرع.وثالثها: الإخلاص بالقلب وهو المراد من قوله وخفية. ورابعها: التزام الشدائد بالشكر وهو المراد من قوله: {لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ}.

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي «لئن أنجانا» على المغايبة وينجيكم بالتشديد في الموضعين. والباقون «لئن أنجيتنا» على الخطاب و«ينجيكم» بالتشديد والتخفيف وحجة من قرأ على المغايبة أن ما قبل لفظ أنجانا وهو «تدعونه» وما بعده وهو «قل الله ينجيكم منها» مذكور بلفظ المغايبة ولا يحتاج في هذه القراءة إلى إضمار نحو تقولون، فالإضمار خلاف الأصل وحجة من قرأ على المخاطبة قوله تعالى في آية أخرى لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين {قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِّنْهَا} أي الله وحده ينجيكم من شدائد البر والبحر {وَمِن كُلِّ كَرْبٍ} أي غم سوى ذلك {ثُمَّ أَنتُمْ} يا أهل مكة بعدما تشاهدون هذه

النعم الجليلة {تُشْرِكُونَ} بعبادته تعالى غيره الذي عرفتم أنه لا يضر ولا ينفع ولا تفون بعهدكم {قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ} كالمطر كما فعل بقوم نوح، والحجارة كما رمى أصحاب الفيل وقوم لوط، والصيحة أي صرخة جبريل التي صرخها على ثمود قوم صالح والريح كما في قوم هود {أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ} كالرجفة وغرق فرعون وخسف قارون {أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ} أي يخلط أمركم خلط اضطراب فيجعلكم فرقاً مختلفين على أهواء شتى كل فرقة متابعة لإمام فإذا كنتم مختلفين قاتل بعضكم بعضاً {ٱنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلآيَٰتِ} أي نكررها متغيرة من حال إلى حال {لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ} أي كي يقفوا على جلية الأمر فيرجعوا عمّا هم عليه من العناد {وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ} أي وكذبوا بالعذاب والحال أنه لواقع لا بدّ وأن ينزل بهم. أو المعنى وكذب قريش بالقرآن وهو الكتاب الصادق في كل ما نطق به وفي كونه منزلاً من عند الله {قُل لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ} أي قل يا أكرم الرسل لهؤلاء المكذبين لست عليكم بحافظ حتى أجازيكم على تكذيبكم وإعراضكم عن قبول الدلائل إنما أنا منذر والله هو المجازي لكم بأعمالكم {لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ} أي لكل خبر يخبره الله تعالى وقت يحصل فيه من غير تأخير. أو المعنى لكل قول من الله من الوعد والوعيد استقرار وحقيقة منه ما يكون في الدنيا ومنه ما يكون في الآخرة {وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} أي ولا بد أن يعلموا أن الأمر كما أخبر الله تعالى عنه عند ظهوره {وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ} أي وإذا رأيت أيها السامع الذين يستهزئون بآياتنا فاترك مجالسهم كي يشرعوا في حديثهم في غير آياتنا أي في غير الاستهزاء بالقرآن.

ونقل الواحدي أن المشركين كانوا إذا جالسوا المؤمنين وقعوا في رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن فشتموا واستهزأوا فأمرهم الله بترك مجالسة المشركين {وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ} أي وإن يشغلك الشيطان فتنسى النهي فتجالسهم فلا تقعد معهم بعد تذكر النهي.

{وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}. قال ابن عباس: قال المسلمون

لئن كنا كلما استهزأ المشركون بالقرآن قمنا عنهم لما قدرنا على أن نجلس في المسجد الحرام وأن نطوف بالبيت، فنزلت هذه الآية. أي ما على الذين يتقون قبائح الخائضين مما يحاسبون عليه من آثامهم شيء ولكن تذكرة لهم عما هم عليه من القبائح بما أمكن من التذكير لعلهم يجتنبون الخوض حياء أو نحوه. وقوله تعالى: {ذِكْرِى} معطوف على محل {شَىْء} وهو رفع على أنه مبتدأ مؤخر أو اسم «ما» ومن مزيدة للاستغراق ومن حسابهم حال {مِن شَىْء} {وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا} أي أعرض عن الذين نصروا الدين ليتوسلوا به إلى أخذ المناصب والرياسة، وغلبة الخصم وجمع الأموال ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم ولا تقم لهم في نظرك وزناً وإنما نصروا الدين للدنيا لأجل أنهم غرتهم الحياة الدنيا أي اطمأنوا بها فلأجل استيلاء حب الدنيا على قلوبهم أعرضوا عن حقيقة الدين واقتصروا على تزيين الظواهر يتوسلوا بها إلى حطام الدنيا، وإذا تأملت في حال أكثر الخلق وجدتهم موصوفين بهذه الصفة وداخلين تحت هذه الحالة والله أعلم والمحقق في الدين هو الذي ينصر الدين لأجل أنه قام الدليل على أنه صواب {وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ} أي ذكرهم بمقتضى الدين مخافة احتباسهم في نار جهنم بسبب جناياتهم لعلهم يخافون {لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلاَ شَفِيعٌ} أي ليس للنفس من غير الله ناصر ولا شفيع يمنع عنها العذاب {وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَآ} أي وإن تفد تلك النفس بكل فداء لا يقبل منها حتى لو جعلت الدنيا بأسرها فدية من عذاب الله لم تنفع {أُوْلَئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ} أي أولئك المتخذون دينهم لعباً ولهواً المغترون بالحياة الدنيا هم الذين حبسوا في جهنم بما كسبوا في الدنيا لهم شراب من ماء مغلي يتجرجر في بطونهم وتتقطع به أمعاؤهم وعذاب أليم بنار تشتعل بأبدانهم بسبب كفرهم المستمر في الدنيا {قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا ٱللَّهُ} أي قل يا أكرم الرسل لهؤلاء المشركين الذين دعوك إلى دين آبائهم كعيينة وأصحابه أنعبد متجاوزين عبادة الله الجامع لجميع صفات الألوهية ما لا يقدر على نفعنا في الدنيا والآخرة إن

عبدناه، ولا على ضرنا فيهما إذا تركناه ونرد إلى الشرك بعد إذ هدانا الله إلى الإسلام وأنقذنا من الشرك، وإنما يقال لكل من أعرض عن الحق إلى الباطل: إنه رجع إلى خلف ورجع على عقبيه لأن الأصل في الإنسان هو الجهل ثم إذا تكامل حصل له العلم فإذا رجع من العلم إلى الجهل مرة أخرى فكأنه رجع إلى أول مرة {كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا} أي فيكون مثلنا كالذي استنزلته الشياطين من الموضع العالي إلى الوهدة السافلة العميقة في قعر الأرض تائهاً عن الجادة لا يدري ما يصنع وللنازل إلى الوهدة المظلمة عينية وأصحابه رفقة وهم أصحاب النّبيّ صلى الله عليه وسلم يدعونه إلى الطريق المستقيم يقولون: ائتنا إلى الجادة والغيلان ينزلونه إلى السافلة المظلمة فبقي متحيراً أين يذهب. وهذا المثل في غاية الحسن وذلك لأن الذي يهوي من المكان العالي إلى الوهدة العميقة يهوي إليها مع الاستدارة على نفسه كما أن الحجر حال نزوله من الأعلى إلى الأسفل ينزل على الاستدارة، وذلك يدل على كمال التردد والتحير فعند نزوله لا يعرف أنه يسقط على موضع يكثر بلاؤه بسبب سقوطه أو يقل فإذا اعتبرت مجموع هذه الأحوال علمت أنك لا تجد مثالاً للمتحير المتردد الخائف أحسن ولا أكمل من هذا المثال {قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ} الذي هدانا إليه هو الإسلام {هُوَ ٱلْهُدَىٰ} الكامل النافع الشريف وما عداه ضلال محض، وغي بحت {وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَوَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ} أي قل وأمرنا بأن نخلص العبادة لرب العالمين لأنه المستحق للعبادة وقل أقيموا الصلاة واتقوا الله تعالى في مخالفة أمره المقصود من ذكر هذين النوعين من الخطاب تنبيه على الفرق بين حالتي الكفر والإيمان. فإن الكافر بعيد غائب والمؤمن قريب حاضر، فيخاطب الكافر بخطاب الغائبين لأنه كالأجنبي الغائب، فيقال له: وأمرنا لنسلم لرب العالمين وإذا أسلم وآمن صار كالقريب الحاضر فيخاطب بخطاب الحاضرين ويقال له: {وَإِذْ أَخَذْنَا وَٱتَّقُوهُ} {وَهُوَ ٱلَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} أي تجمعون يوم القيامة فيجزيكم بأعمالكم {وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضَ} وما فيهما {بِٱلْحَقِّ} أي قائماً بالحق لا عابثاً {وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ} أي وأمره

المتعلق بكل شيء يريد خلقه حين تعلقه به هو المعروف بالحقية.

والمراد من هذا الأمر التنبيه على نفاذ قدرته ومشيئته في تكوين الكائنات وهذا بيان أن خلقه تعالى للسمٰوات والأرض ليس مما يتوقف على مادة ولا مدة بل يتم بمحض الأمر التكويني من غير توقف على شيء آخر أصلاً. والمراد بالقول كلمة «كن» تمثيل لأن سرعة قدرته تعالى أقل زمناً من زمن النطق بكن {وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّوَرِ} إنما أخبر الله عن ملكه يومئذ لأنه لا منازع له يومئذ فإن الملوك اعترفوا بأن الملك لله الواحد القهار، والصور قرن ينفخ فيه إسرافيل نفختين نفخة الصعق أي الموت، ونفخة البعث للحساب {عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ} أي عالم ما غاب عن العباد وما عمله العباد وقوله تعالى: {وَلَهُ ٱلْمُلْكُ} يدل على كمال القدرة وقوله: {عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ} يدل على كمال العلم {وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ} فالحكيم هو المصيب في أفعاله والخبير هو العالم بحقائق الأشياء من غير اشتباه {وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لأَبِيهِ ءَازَرَ} وهو في التوراة تارح فلأبي إبراهيم اسمان آزر وتارح بن ناحور. واعلم أن جميع نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم مطهر من عبادة الأصنام ما دام النور المحمدي في أصلابهم أما بعد انتقاله منهم فتجوز عليهم عبادة الأصنام وغيرها من سائر أنواع الكفر {أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً ءَالِهَةً} أي أتجعل لنفسك أصناماً آلهة فتعبد أصناماً شتى صغيراً وكبيراً ذكراً وأنثى {إِنِّى أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ} أي إني أراك يا أبت وقومك في ضلال عن الحق بين في الاتفاق على عبادة الأصنام {وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ} أي كما أرينا إبراهيم البصيرة في دينه والحق في خلاف ما كان قومه عليه من عبادة الأصنام نريه ملكوت السمٰوات والأرض من وقت طفوليته ليراها فيتوسل بها إلى معرفة جلال الله تعالى وقدسه، وعلوه وعظمته وليصير زمان بلوغه من البالغين درجة عين اليقين من معرفة الله تعالى، لأن مخلوقات الله وإن كانت متناهية في الذوات والصفات فهي غير متناهية من جهات دلالتها على الذوات والصفات كما نقل عن إمام الحرمين أنه يقول معلومات الله تعالى غير متناهية ومعلوماته في كل واحد من تلك المعلومات

غير متناهية أيضاً وذلك لأن الجوهر الفرد يمكن وقوعه في أحياز لا نهاية لها على البدل، ويمكن اتصافه بصفات لا نهاية لها على البدل، وكل تلك الأحوال التقديرية دالة على حكمة الله وقدرته، وإذا كان الجوهر الفرد وهو الجزء الذي لا يتجزأ كذلك فكيف القول في ملكوت الله تعالى فثبت أن دلالة ملك الله تعالى على سمات عظمته وعزته غير متناهية، وحصول المعلومات التي لا نهاية لها دفعة واحدة في عقول الخلق محال فحينئذ لا طريق إلى تحصيل تلك المعارف إلا بأن يحصل بعضها عقب بعض وهذا هو المراد من قول المحققين السفر إلى الله له نهاية، وأما السفر في الله فإنه لا نهاية له والله أعلم {فَلَمَّا جَنَّ} أي أظلم {عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ} في السرب {رَأَى كَوْكَباً} وهي الزهرة وهي في السماء الثالثة {قَالَ هَٰذَا رَبِّى} مجاراة مع أبيه وقومه الذين كانوا يعبدون الأصنام والكوكب {فَلَمَّآ أَفَلَ} أي غرب {قَالَ لاۤ أُحِبُّ ٱلآفِلِينَ} أي لا أحب الأرباب المنتقلين من مكان إلى مكان المتغيرين من حال إلى حال المحتجبين بالأستار {فَلَمَّآ رَأَى ٱلْقَمَرَ بَازِغاً} أي مبتدئاً في الطلوع إثر غروب الكواكب {قَالَ هَٰذَا رَبِّى} هذا أكبر من الأول حكاية لقول الخصم الذين يعبدون الكواكب {فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى} إلى حضرة الحق {لأكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ} فإن شيئاً مما رأيته لا يليق بالربوبية {فَلَمَّا رَأَى ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً} أي مبتدئه في الطلوع {قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ} من الأول والثاني {فَلَمَّآ أَفَلَتْ} أي هي {قَالَ} مخاطباً للكل صادعاً بالحق بينهم {يٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىۤءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ} بالله من الأجرام المحدثة المحتاجة إلى محدث.

اعلم أن أكثر المفسرين ذكروا أن ملك ذلك الزمان وهو نمروذ بن كنعان رأى رؤيا كأن كوكباً قد طلع فذهب بضوء الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء، وعبرها المعبرون بأنه يولد غلام ينازعه في ملكه فأمر ذلك الملك بذبح كل غلام يولد في هذه السنة فحبلت أم إبراهيم به وما أظهرت حبلها للناس فلما جاءها الطلق ذهبت إلى كهف ووضعت إبراهيم وسدت الباب بحجر، فجاء جبريل عليه السلام ووضع أصبعه في فمه فمصه فخرج منه رزقه، وكان يتعهده جبريل عليه السلام فكانت الأم تأتيه أحياناً وترضعه وبقي على هذه الصفة حتى كبر وعقل وعرف أن له رباً فسأل الأم فقال لها: من ربي؟ فقالت:

أنا، فقال: ومن ربك؟ قالت: أبوك، فلما أتاه أبوه آزر فقال: يا أبتا من ربي؟ قال: أمك، قال: فمن رب أمي؟ قال: أنا، قال: فمن ربك؟ قال: ملك البلد نمروذ، فعرف إبراهيم جهلهما بربهما فلما جن عليه الليل دنا من باب السرب فنظر من باب ذلك الغار ليرى شيئاً يستدل به على وجود الرب تعالى فرأى النجم الذي هو أضوء النجوم في السماء فقال: هذا ربي إلى آخر القصة. ولما تبرأ إبراهيم من المشركين توجه إلى منشىء هذه المصنوعات فقال: {إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلأَرْضَ} أي إني وجهت طاعتي وصرفت وجه قلبي للذي أخرج السمٰوات والأرض إلى الوجود {حَنِيفاً} أي مائلاً عن كل معبود دون الله تعالى {وَمَآ أَنَاْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ} في شيء من الأفعال والأقوال.

{وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ} أي خاصموه في آلهتهم وخوفوه بها.روي أنه لما شبَّ إبراهيم جعل آزر يصنع الأصنام ويعطيها له ليبيعها فيذهب بها وينادي من يشتري ما يضره ولا ينفعه فلا يشتريها أحد، فإذا بارت عليه ذهب بها إلى نهر وضرب فيه رؤوسها وقال لها: اشربي. استهزاء بقومه حتى فشا فيهم استهزاؤه بها فقالوا له: احذر الأصنام فإنا نخاف أن تمسك بخبل أو جنون بعيبك إياها فذلك قوله تعالى: {وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ}. {قَالَ} أي إبراهيم لهم: {أَتُحَاجُّوۤنِّى فِى ٱللَّهِ} أي أتخاصمونني في وحدانية الله {وَقَدْ هَدَانِى} لدينه فكيف ألتفت إلى حجتكم العليلة وكلماتكم الباطلة {وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ} من الأصنام لأن الخوف إنما يحصل ممن يقدر على النفع والضر والأصنام جمادات لا قدرة لها على النفع والضر فكيف يحصل الخوف منها {إِلاَّ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْئاً} أي لا أخاف معبوداتكم في وقت قط لأنها لا تقدر على منفعة ولا مضرة إلا أن يشاء ربي شيئاً من المكروه يصيبني من جهتها كأن يحييها ويمكنها من إيصال المنفعة والمضرة إلي، أو من نزع المعرفة من قلبي فأخاف ممن تخافون {وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً} فإنه علام الغيوب فلا يفعل إلا الصلاح والحكمة فبتقدير أن يحدث من مكاره الدنيا فذاك لأنه تعالى عرف وجه الصلاح والخير فيه لا لأجل أنه عقوبة على الطعن في إلهية الأصنام {أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ} أن نفي الشركاء عن الله تعالى لا يوجب نزول العذاب وإثبات التوحيد له تعالى لا يوجب

استحقاق العقاب. أو المعنى أتعرضون عن التأمل في أن آلهتكم جمادات لا تضر ولا تنفع فلا تتذكرون أنها غير قادرة ولا تتعظون فيما أقول لكم من النهي {وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰناً} أي وكيف أخاف الأصنام التي لا قدرة لها على النفع والضر وأنتم لا تخافون من الله إشراككم بالله ما يمتنع حصول الحجة فيه، أو ما لم يرد الأمر به أي وكيف أخاف أنا ما ليس في حيز الخوف أصلاً، وأنتم لا تخافون غائلة ما هو أعظم المخوّفات وهو إشراككم بالله الذي لا يماثل ذاته وصفاته شيء في الأرض ولا في السماء ما هو من جملة مخلوقاته {فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلاٌّمْنِ} أي ما لكم تنكرون على الأمن في موضع الأمن ولا تنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف فأي الفريقين من الموحدين والمشركين أحق بالأمن من معبود أحد الفريقين {إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} من أحق بذلك فأخبروني فلم يجيبوا فأجاب الله ما سأل عنهم فقال {ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوۤاْ إِيمَٰنَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَٰئِكَ لَهُمُ ٱلاٌّمْنُ} أي الفريق الذين آمنوا ولم يخلطوا إيمانهم بشرك بأن لم يثبتوا لله شريكاً في المعبودية أولئك لهم الأمن من العذاب {وَهُمْ مُّهْتَدُونَ} إلى الصواب ومن عداهم في ضلال ظاهر والله تعالى شرط في الإيمان الموجب للأمن عدم الظلم أي عدم النفاق بالإيمان. وأما الفاسق فهو مؤمن فوعيد الفاسق من أهل الصلاة يحتمل أن يعذبه الله وأن يعفو عنه فالأمن زائل والخوف حاصل فلم يلزم من عدم الأمن القطع بحصول العذاب والله أعلم {وَتِلْكَ} أي ما احتج به إبراهيم على قومه {حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ} أي ألهمناها {إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ} متعلق بحجتنا {نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ}.

قرأ عاصم وحمزة والكسائي بغير إضافة أي نرفع من نشاء رفعه في رتب عظيمة عالية من العلم والحكمة والمنزلة. وقرأ الباقون بالإضافة {إِنَّ رَبَّكَ} يا أكرم الرسل {حَكِيمٌ} في كل ما فعل من رفع وخفض. {عَلِيمٌ} بحال من يرفعه أي إن الله يرفع درجات من يشاء بمقتضى حكمته وعلمه فإن أفعاله تعالى منزهة عن العبث {وَوَهَبْنَا لَهُ} أي لإبراهيم لصلبه {إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ} من إسحاق {كُلاًّ هَدَيْنَا} أي كل واحد من إبراهيم وإسحاق ويعقوب أرشدنا إلى النبوة والرسالة {وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ} أي من قبل

إبراهيم {وَمِن ذُرِّيَّتِهِ} أي وهدينا من ذرية نوح {دَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ} هو ابن أموص من أسباط عيص بن إسحاق {وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ} أي ونجزي المحسنين المذكورين جزاء كائناً مثل ذلك الجزاء على إحسانهم وهو الإتيان بالأعمال الحسنة على حسنها الوصفي المقارن لحسنها الذاتي، وقد فسره النّبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

{وَزَكَرِيَّا} ابن أذن {وَيَحْيَىٰ} ابنه {وَعِيسَىٰ} ابن مريم بنت عمران {وَإِلْيَاسَ} بن ياسين بن فنحاص بن عيزار بن هارون بن عمران {كُلٌّ} أي كل واحد من أولئك المذكورين {مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ} أي من الكاملين في الصلاح. وهو الإتيان بما ينبغي والتحرز عمّا لا ينبغي {وَإِسْمَٰعِيلَ} بن إبراهيم {وَ ٱلْيَسَعَ} بن أخطوب بن العجوز.

قرأ حمزة والكسائي واليسع بتشديد اللام وسكون الياء. والباقون واليسع بلام واحدة ساكنة وبفتح الياء {وَيُونُسَ} بن متى {وَلُوطاً} بن هاران أخي إبراهيم {وَكُلاًّ} من هؤلاء الأنبياء {فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ} فهم يفضلون على الملائكة والأولياء.

واعلم أن الله تعالى خصَّ كل طائفة من الأنبياء بنوع من الكرامة والفضل فمنهم أصول الأنبياء وإليهم يرجع حسبهم جميعاً وهم نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب، ثم المراتب المعتبرة عند جمهور الخلق بعد النبوة الملك والسلطان والقدرة، وقد أعطى الله داود وسليمان من هذا الباب نصيباً عظيماً، ثم المرتبة الثالثة البلاء الشديد، والمحنة العظيمة، وقد خصَّ الله أيوب بهذه الخاصية، والمرتبة الرابعة من كان مستجمعاً لهاتين الحالتين وهو يوسف فإنه نال البلاء الكثير في أول الأمر، ثم أعطاه الله النبوة مع ملك مصر، والمرتبة الخامسة من فضائل الأنبياء: قوة المعجزات وكثرة البراهين والمهابة العظيمة والصولة الشديدة وذلك في حق موسى وهارون. والمرتبة السادسة: الزهد الشديد والإعراض عن الدنيا وترك مخالطة الخلق وذلك كما في حق زكريا ويحيى وعيسى وإلياس، ولهذا السبب وصفهم الله بأنهم من الصالحين، ثم ذكر الله بعد هؤلاء من لم يبق له فيما بين الخلق أتباع وهم إسماعيل واليسع ويونس ولوط والله أعلم. {وَمِنْ ءابَائِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ

وَإِخْوَٰنِهِمْ} وهذا إما عطف على «كلا» فالعامل فيه «فضلنا» ومن تعيضية أو على «نوحاً» فالعامل فيه «هدينا» و«من» ابتدائية والمفعول محذوف أي وهدينا بالنبوة والإسلام من آبائهم جماعات كثيرة آدم وشيث وإدريس وهود وصالح ومن ذرياتهم جماعات كثيرة أولاد يعقوب ومن إخوانهم جماعات إخوة يوسف {وَ ٱجْتَبَيْنَٰهُمْ} أي اصطفيناهم بالنبوة والرسالة {وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ} أي إلى معرفة التوحيد وتنزيه الله تعالى عن الشرك {ذَٰلِكَ} أي معرفة الله بوحدانيته {هُدَى ٱللَّهِ} أي دين الله فإن الإيمان لا يحصل إلا بخلق الله تعالى {يَهْدِى بِهِ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ} وهم المستعدون للهداية في الإرشاد {وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} أي ولو أشرك هؤلاء الأنبياء لحبط عنهم مع فضلهم وعلو درجاتهم أعمالهم المرضية وعبادتهم الصالحة فيكف بمن عداهم. والمقصود من هذا الكلام تقرير التوحيد وإبطال طريقة الشرك {أُوْلَٰئِكَ} أي الأنبياء الثمانية عشر {ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ} أي أعطيناهم فهماً تاماً لما في الكتاب وعلماً محيطاً بأسراره {وَ ٱلْحُكْمَ} فإن الله تعالى جعلهم حكاماً على الناس نافذي الحكم فيهم بحسب الظاهر {وَٱلنُّبُوَّةَ} فيقدرون بها على التصوف في ظواهر الخلق كالسلاطين، وفي بواطنهم وأرواحهم كالعلماء {فَإِن يَكْفُرْ بِهَا} أي بهذه الثلاثة {هَٰؤُلاءِ} أي كفار قريش {فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا} أي وفقنا للإيمان بها والقيام بحقوقها {قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ} أي بجاحدين في وقت من الأوقات وهم الأنصار وأهل المدينة.

{أُوْلَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ} أي أولئك الذين قصصناهم من النبيين هداهم الله بالأخلاق الحسنى فبأخلاقهم الشريفة اقتده، واستدل بهذه الآية بعض العلماء على أن محمداً صلى الله عليه وسلم أفضل من جميع الأنبياء، وذلك لأن جميع الصفات الحميدة كانت متفرقة فيهم فأمر الله تعالى رسوله سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم أن يقتدي بهم بأسرهم في جميع صفات الكمال التي كانت متفرقة فيهم فيلزم أنه صلى الله عليه وسلم حصَّلها، ومتى كان الأمر كذلك وجب أن يقال: إنه صلى الله عليه وسلم أفضل منهم بكليتهم. فكان نوح صاحب تحمل الأذى من قومه. وكان إبراهيم صاحب كرم وبذل ومجاهدة في الله تعالى، وكان إسحاق ويعقوب صاحبي

صبر على البلاء والمحن. وكان داود وسليمان من أصحاب الشكر على النعمة، وكان أيوب صاحب صبر على البلاء وكان يوسف جامعاً بين الصبر والشكر، وكان موسى صاحب الشريعة الظاهرة، وكان زكريا ويحيى وعيسى وإلياس من أصحاب الزهد في الدنيا، وكان إسماعيل صاحب صدق وكان يونس صاحب تضرع. {قُل} يا أشرف الخلق لأهل مكة: {لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ} أي القرآن {أَجْراً} من جهتكم {إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ} أي ما القرآن إلا عظة للجن والإنس من جهته تعالى {وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ} أي ما عرفوه تعالى حق معرفته في اللطف بعباده والرحمة عليهم ولم يراعوا حقوقه تعالى في ذلك {إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ}.

روي أن مالك بن الصيف وهو من أحبار اليهود ورؤسائهم جاء في مكة يخاصم النبي صلى الله عليه وسلم وكان رجلاً سميناً، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنشدك الله الذي أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها أن الله تعالى يبغض الحبر السمين» فقال: نعم وكان يحب إخفاء ذلك لكن أقر لإقسام النبي عليه فقال له النبي: «أنت حبر سمين وقد سمنت من الأشياء التي تطعمك اليهود». فضحك القوم، فغضب مالك بن الصيف ثم التفت إلى عمر فقال: ما أنزل الله على بشر من شيء. فقال له أصحابه الذين معه: ويحك، ولا على موسى. فقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء، فلما سمع قومه تلك المقالة قالوا: ويلك. ما هذا الذي بلغنا عنك أليس الله أنزل التوراة على موسى فلم قلت هذا قال؟: أغضبني محمد فقلته، فقالوا: وأنت إذا غضبت تقول على الله غير الحق. فعزلوه من الحبرية وعن رياستهم لأجل هذا الكلام وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف. {قُلْ} لهم: {مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِ مُوسَىٰ نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ} أي حال كون الكتاب ظاهراً جلياً في نفسه وهادياً للناس من الضلالة{تَجْعَلُونَهُ قَرَٰطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً} أي تضعون الكتاب في ورقات مفرقة فجعلوه أجزاء نحو نيف وثمانين جزءاً، وفعلوا ذلك ليتمكنوا من إخفاء ما أرادوا إخفاءه، فيجعلون ما يريدون إخفاءه على حدى ليتمكنوا من إخفائه.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو بياء الغيبة في الأفعال الثلاثة. والباقون بتاء الخطاب {وَعُلِّمْتُمْ} أيها اليهود من

الأحكام وغيرها {مَّا لَمْ تَعْلَمُوۤاْ أَنتُمْ وَلاَ ءَابَاؤُكُمْ} من قبل نزول التوراة. وقيل: المراد من قوله تعالى: {وَعُلِّمْتُمْ مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ ءابَاؤُكُمْ} أن التوراة كانت مشتملة على البشارة بمقدم محمد واليهود قبل مقدمه صلى الله عليه وسلم كانوا يقرأون تلك الآيات وما كانوا يفهمون معانيها فلما بعث محمداً ظهر أن المراد من تلك الآيات هو مبعثه صلى الله عليه وسلم {قُلِ ٱللَّهُ} أي قل يا أكرم الرسل المنزل لهذا الكتاب هو الله تعالى {ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ} أي ثم اتركهم في باطلهم الذين يخوضون فيه يسخرون فإنك إذا أقمت الحجة لم يبقَ عليك من أمرهم شيء ألبتة {وَهَـٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ} أي وهذا القرآن كتاب أنزلناه بالوحي على لسان جبريل {مُبَارَكٌ} أي كثير خيره دائم منفعته يبشر بالمغفرة يزجر عن المعصية {مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ} أي موافق للكتب التي قبله في التوحيد وتنزيه الله، والدلالة على البشارة والنذارة {وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ}.

قرأ شعبة «لينذر» على الغيبة أي لينذر الكتاب والباقون و«لتنذر» بالخطاب. أي ولتنذر يا أكرم الرسل أهل مكة سميت أم القرى لأنها قبلة أهل الدنيا ولأنها موضع الحج وهي من أصول عبادات أهل الدنيا فيجتمع الخلق إليها كما يجتمع الأولاد إلى الأم، فلما اجتمع أهل الدنيا فيها بسبب الحج فيلزم أن يحصل فيها أنواع التجارات وهي من أصول المعيشة فلهذا السبب سميت مكة أم القرى {وَمَنْ حَوْلَهَا} أي من أهل جميع بلاد العالم {وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلآخِرَةِ} أي بالوعد والوعيد والثواب والعقاب {يُؤْمِنُونَ بِهِ} أي بالكتاب {وَهُمْ عَلَىٰ صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ} فإن الإيمان بالآخرة يحمل على الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وذلك يحمل على المحافظة على الصلاة وتخصيصها بالذكر لأنها أشرف العبادات بعد الإيمان بالله فلم يقع اسم الإيمان على شيء من العبادات الظاهرة إلا على الصلاة. قال تعالى: {وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ} (البقرة: 341) أي صلاتكم. ولم يقع اسم الكفر على شيء من المعاصي إلا على ترك الصلاة. قال صلى الله عليه وسلم: «من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر».

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً} نزل هذا في مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة وفي الأسود العنسي

صاحب صنعاء فإنهما كانا يدَّعيان النبوة والرسالة من عند الله تعالى على سبيل الكذب {أَوْ قَالَ أُوْحِى إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ}.

روي أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما نزل قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإِنْسٰنَ مِن سُلٰلَةٍ مّن طِينٍ} (المؤمنون: 21) أملاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما بلغ قوله تعالى: {ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً} (المؤمنون: 41) عجب عبد الله من تفصيل خلق الإنسان فقال: فتبارك الله أحسن الخالقين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هكذا نزلت الآية إكتبها كذلك» فشك عبد الله وقال: إن كان محمداً صادقاً فقد أوحي إليَّ مثل ما أوحي إليه فارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين، ثم رجع بعد ذلك إلى الإسلام فأسلم قبل فتح مكة حين نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم بمر الظهران {وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ} كما ادعى النضر بن الحرث معارضة القرآن فإنه قال في شأن القرآن: إنه من أساطير الأولين وكل أحد يمكنه الإتيان بمثله، وقال: لو نشاء لقلنا مثل هذا.

قال العلماء: وقد دخل في حكم هذه الآية كل من افترى على الله كذباً في ذلك الزمان وبعده لأن خصوص السبب لا يمنع عموم الحكم {وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَاتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايٰتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ} أي ولو ترى يا أشرف الخلق الظالمين وقت كونهم في شدائد الموت في الدنيا والملائكة باسطوا أيديهم لقبض أرواحهم قائلين لهم: أخرجوا أنفسكم من هذه الشدائد، وخلِّصوها من هذه الآلام، هذا الوقت تجزون العذاب الذي يقع به الهوان الشديد بسبب الافتراء على الله والتكبر على آيات الله، لرأيت أمراً فظيعاً. أو المعنى ولو ترى الظالمين إذا صاروا إلى أنواع الشدائد والتعذيبات في الآخرة فأدخلوا جهنم والملائكة باسطوا أيديهم عليهم بالعذاب مبكتين لهم قائلين: أخرجوا أنفسكم من هذا العذاب الشديد هذا الوقت تجزون العذاب المشتمل على الإهانة بسبب كونكم قائلين قولاً غير الحق، وكونكم مستكبرين عن الإيمان بآيات الله لرأيت أمراً عظيماً. {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا} للحساب {فُرَادَىٰ} عن الأهل والمال

والجاه {كَمَا خَلَقْنٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} أي مشبهين ابتداء خلقكم حفاة عراة غرلاً بهما أي ليس معهم شيء {وَتَرَكْتُمْ} بغير اختياركم {مَّا خَوَّلْنٰكُمْ} أي أعطيناكم من الأموال {وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ} في الدنيا أما إذا صرف الأموال إلى الجهات الموجبة لتعظيم أمر الله وللشفقة على خلق الله فما تركها وراء ظهره بل قدمها تلقاء وجهه {وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَآءُ} أي وما نرى معكم أصنامكم التي زعمتم أنها شركاء لله في استحقاق عبادتكم {لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ}.

قرأ نافع وحفص عن عاصم والكسائي بالنصب. أي لقد تقطعت الشركة بينكم. والباقون بالرفع أي لقد تقطع وصلكم ف«البين» اسم يستعمل للوصل والفراق فهو مشترك بينهما كالجون للأسود والأبيض {وَضَلَّ} أي ضاع {عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ} إن الأصنام شفعاؤكم {إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ} أي شاق جميع الحبوب من الحنطة وغيرها {وَٱلنَّوَىٰ} وهي التي في داخل الثمار أي فإذا وقعت الحبة أو النواة في الأرض الرطبة ثم مرَّ عليها مدة أظهر الله تعالى في تلك الحبة أو النواة من أعلاها شقاً ومن أسفلها شقاً آخر فيخرج من الحبة ورق أخضر ومن النواة شجرة صاعدة في الهواء ويخرج منها عروق هابطة في الأرض {يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ} أي يخرج من النطفة بشراً حياً، ومن البيضة فروخاً حية، ومن الحب اليابس نباتاً غضاً، ومن الكافر مؤمناً، ومن العاصي مطيعاً وبالعكس {ذٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ} أي ذلكم الله المدبر الخالق، النافع الضار، المحيي المميت فمن أين تكذبون في إثبات القول بعبادة الأصنام؟ وقيل: المراد الإنكار على تكذيبهم بالحشر والنشر. فالمعنى إنكم لما شاهدتم أنه تعالى يخرج الحي، من الميت ومخرج الميت من الحي ثم شاهدتم أنه تعالى أخرج البدن الحي من النطفة الميتة مرة واحدة فكيف تستبعدون أن يخرج البدن الحي من ميت التراب الرميم مرة أخرى {فَالِقُ ٱلإِصْبَاحِ} أي فالق ظلمة الإصباح بنور الإصباح وذلك لأن الأفق من الجانب الغربي والشمالي والجنوبي مملوء من الظلمة، وإنما ظهر النور في الجانب الشرقي فكأن الأفق كان بحراً مملوءاً من الظلمة، ثم إنه تعالى شق ذلك البحر المظلم بأن أجرى جدولاً من النور فيه {وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ

سَكَناً} أي يستريح فيه الخلق من التعب الحاصل في النهار.

قرأ عاصم وحمزة والكسائي على صيغة الماضي. والباقون على صيغة اسم الفاعل {وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَاناً} أي قدَّر الله تعالى حركة بمقدار معين من السرعة والبطء بحيث تتم الدورة في سنة، وقدَّر حركة القمر بحيث تتم الدورة في شهر وبهذه المقادير تنتظم مصالح العالم في الفصول الأربعة وبسببها يحصل ما يحتاج إليه من نضج الثمار وحصول الغلات {ذٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ} أي حصول هذه الأحوال لا يمكن إلا بقدرة كاملة متعلقة بجميع الممكنات وبعلم نافذ في جميع المعلومات من الكليات والجزئيات فليس حصول حركات أجرام الأفلاك بصفاتها المخصوصة بالطبع وإنما هو بتخصيص الفاعل المختار {وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ} أي وهو الذي خلق لكم النجوم لاهتدائكم بها في مشتبهات الطرق إذا سافرتم في بر أو بحر، ولاستدلالكم بها على معرفة القبلة وعلى معرفة أوقات الصلاة {قَدْ فَصَّلْنَا ٱلآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} أي قد بيّنا العلامات الدالة على قدرتنا ووحدانيتنا لقوم يتأملون فيستدلون بالمحسوس على المعقول وينتقلون من الشاهد إلى الغائب، أي فإن هذه النجوم كما يستدل بها على الطرقات في ظلمات البر والبحر فكذلك يستدل بها على معرفة الصانع الحكيم وكمال قدرته وعلمه {وَهُوَ ٱلَّذِىۤ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ} أي الذي خلقكم مع كثرتكم من نفس آدم عليه السلام {فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ}.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو «فمستقر» بكسر القاف. والباقون بفتحها وأما مستودع فهو بفتح الدال لا غير بالمعنى على الأول فمنكم مستقر ومنكم شيء مودع في الصلب وهو النطفة وعلى الثاني فلكم مكان استقرار وهو الأرحام، ومكان استيداع وهو نفس الأصلاب. والفرق بين المستقر والمستودع أن المستقر ما لم يكن على قرب الزوال والمستودع ما كان على قرب الزوال فإن النطفة تبقى في صلب الأب زماناً قصيراً والجنين يبقى في رحم الأم زماناً طويلاً ولما كان المكث في بطن الأم أكثر من المكث في صلب الأب حمل المستقر على الرحم والمستودع على الصلب.

وقيل: إن المستقر صلب الأب والمستودع: رحم الأم، لأن النطفة حصلت في صلب الأب قبل حصولها في رحم الأم. فحصول النطفة في الرحم من فعل الرجل مشبه بالوديعة وحصولها في الصلب لا من جهة الغير.

وقال أبو مسلم الأصبهاني: إن تقدير الآية هو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمنكم ذكر ومنكم أنثى، وإنما عبر عن الذكر بالمستقر لأن النطفة إنما تنشأ في صلبه وتستقر فيه. وإنما عبر عن الأنثى بالمستودع لأن رحمها شبيه بالمستودع لتلك النطفة {قَدْ فَصَّلْنَا ٱلآيَٰتِ} أي قد بينا العلامات الدالة على قدرتنا من تفاصيل خلق البشر {لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ} أي يدققون النظر فإن إنشاء الأنس من نفس واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة ألطف صنعة وإن الاستدلال بالأنفس أدق من الاستدلال بالنجوم في الآفاق لظهورها {وَهُوَ ٱلَّذِيۤ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً} أي وهو الله الذي خلق هذه الأجسام في السماء ثم ينزلها إلى السحاب ثم من السحاب إلى الأرض {فَأَخْرَجْنَا بِهِ} أي بسبب الماء {نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ} من الأشياء التي تنمو من أنواع النجم والشجر {فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ} أي النبات {خَضِراً} أي زرعاً. والمراد من هذا الخضر العود الأخضر الذي يخرج أولاً في القمح والشعير والذرة والأرز ويكون السنبل في أعلاه {نُّخْرِجُ مِنْهُ} أي من ذلك الخضر {حَبّاً مُّتَرَاكِباً} بعضه على بعض في سنبلة واحدة {وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا} أي كيزانها قبل أن ينشق عن الإغريض {قِنْوَٰنٌ} أي عراجين تدلت من الطلع {دَانِيَةٌ} أي قريبة من القاطف يناله القائم والقاعد {وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَٰبٍ}.

قرأ عاصم بالرفع وهي قراءة علي، أي ومن الكرم جنات من أعناب. والباقون بالنصب والتقدير وأخرجنا بالماء بساتين من أعناب {وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ} أي شجرهما والأحسن أن ينتصبا على الاختصاص لعزة هذين الصنفين عندهم {مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ} أي إن هذه الفواكه قد تكون متشابهة في اللون والشكل مع أنها تكون مختلفة في الطعم واللذة، وقد تكون مختلفة في اللون والشكل مع أنها تكون متشابهة في الطعم واللذة، وأيضاً بعض حبات العنقود من العنب متشابهة وبعضها غير متشابه فإنك إذا أخذت العنقود ترى حباته نضجة حلوة طيبة إلا حبات مخصوصة منها بقيت على أول حالها من الخضرة

والحموضة والعفوصة. {ٱنْظُرُوۤاْ} أيها المخاطبون. نظر اعتبار {إِلِىٰ ثَمَرِهِ} أي ثمر كل واحد مما ذكر.

قرأ حمزة والكسائي بضم الثاء والميم. وقرأ أبو عمرو بضم الثاء وسكون الميم. والباقون بفتح الثاء والميم {إِذَآ أَثْمَرَ} أي إذا خرج ثمره فتجدوه ضئيلاً لا يكاد ينتفع به. {وَيَنْعِهِ} أي وانظروا إلى حال نضجه وكماله فتجدوه قد صار قوياً جامعاً لمنافع جمة {إِنَّ فِى ذٰلِكُمْ} أي في اختلاف الألوان وهو ما أمر بالنظر إليه {لآيَٰتٍ} أي عظيمة دالة على وجود القادر الحكيم ووحدته {لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} أي لمن سبق في حقه قضاء الله بالإيمان، فأما من سبق له قضاء الله بالكفر لم ينتفع بهذه الدلالة ألبتة أصلاً.

{وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ} أي قال المجوس: إن الله تعالى وإبليس أخوان شريكان فالله تعالى خالق الناس والدواب والأنعام، وإبليس خالق السباع والحيات والعقارب، وقالوا: كل ما في هذا العالم من الخيرات فهو من يزدان وجميع ما فيه من الشرور فهو من أهرمن، وهو المسمى بإبليس في شرعنا. {وَخَلَقَهُمْ} أي وقد علموا أن الله خلقهم فإن أكثر المجوس معترفون بأن إبليس ليس بقديم بل هو حادث، وإنما كان إبليس أصلاً لجميع الشرور والآفات والمفاسد والقبائح وقد سلموا أن إله العالم هو الخالق لما هو أصل الشرور والقبائح والمفاسد، ثم إن في المجوس من يقول: إنه تعالى تفكَّر في مملكة نفسه واستعظمها فحصل نوع من العجب فنشأ الشيطان عن ذلك العجب ومنهم من يقول شك في قدرة نفسه فنشأ من شكه الشيطان فهؤلاء معترفون بأن أهرمن محدث وأن محدثه هو الله تعالى فقوله تعالى: {وَخَلَقَهُمْ} إشارة إلى هذا المعنى والضمير عائد إلى الجن {وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ}.

قرأ نافع و«خرقوا» بتشديد الراء والجمهور بتخفيفها، وقرأه ابن عباس بالحاء المهملة والفاء وتخفيف الراء، وابن عمر كذلك إلا أنه شدد الراء أي كذبوا في الله حيث وصفوه تعالى بثبوت لبنين والبنات مصاحبين لجهل حقيقة ما وصفوه فالذين أثبتوا لبنين النصارى وقوم من اليهود حيث قال النصارى: المسيح ابن الله، واليهود: عزير ابن الله والذين أثبتوا البنات العرب الذين يقولون: الملائكة بنات الله، فلو عرفوا أن الإله يجب أن يكون واجب الوجود

لذاته لامتنعوا أن يثبتوا له تعالى البنين والبنات، فإن الولد دال على كونه منفصلاً من جزء من أجزاء الوالد وذلك إنما يكون في مركب يمكن انفصال بعض أجزائه وذلك في حق الفرد الواجب لذاته محال فمن عرف حقيقة الإله استحال أن يقول له تعالى ولد {سُبْحَٰنَهُ} نزه الله ذاته بنفسه عمّا لا يليق به {وَتَعَٰلَىٰ} أي تقدس {عَمَّا يَصِفُونَ} بأن له تعالى شريكاً وولداً. فالتسبيح يرجع إلى ذات المسبح والتعالي يرجع إلى صفته الذاتية التي حصلت له تعالى سواء سبحه تعالى مسبح أم لا؟ {بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ}. والمعنى أن الله تعالى أخرج عيسى إلى الوجود من غيرَ سبق الأب والنطفة كما أنه تعالى خلق السمٰوات والأرض من غير سبق مادة ومدة، فلو لزم من مجرد كونه تعالى مبدعاً لإحداث عيسى كونه تعالى والداً له عليه السلام لزم من كونه تعالى مبدعاً للسموات والأرض كونه تعالى والداً لهما وذلك باطل بالاتفاق، فثبت أن مجرد كونه تعالى مبدعاً لعيسى لا يقتضي كونه والداً له {أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَّهُ صَٰحِبَةٌ} أي من أين يكون له تعالى ولد والحال ليس له زوجة؟ أي لأن الولد لا يصح إلا ممن كانت له زوجة وشهوة وينفصل عنه جزء ويحتبس ذلك الجزء في باطن تلك الزوجة، وهذه الأحوال إنما تثبت في حق الجسم الذي يصح عليه الاجتماع والافتراق والحركة والسكون والشهوة واللذة وكل ذلك محال على خالق العالم {وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ} أي من أين يكون له ولد والحال أنه تعالى خلق جميع الأشياء؟ فإن تحصيل الولد بطريق الولادة إنما يصح في حق من لا يقدر على التكوين دفعة واحدة فمن كان قادراً على تكوين المحدثات فإذا أراد إحداث شيء قال له: كن، فيكون. ومن كان صفته هكذا امتنع إحداث شخص منه بطريق الولادة {وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ} أي فإن علم الله أن في تحصيل الولد نفعاً له تعالى وكمالاً وجب حصول الولد قبل ذلك، وهذا يوجب كون ذلك الولد أزلياً وهو محال. وإن علم أنه ليس له تعالى في تحصيل الولد ازدياد مرتبة في الإلهية ولا كمال حال فيها وجب أن لا يحدثه ألبتة في وقت من الأوقات، وأيضاً الولد المعتاد إنما يحدث بقضاء الشهوة وهو يوجب اللذة وهي مطلوبة لذاتها فوجب أن يعلم الله أن تحصيل تلك اللذة يدعوه إلى تحصيلها قبل ذلك الوقت فوجب أن

تحصل تلك اللذة في الأزل فلزم كون الولد أزلياً، وذلك محال فثبت عدم صحة الولد عليه تعالى {ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لاۤ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ} واسم الإشارة راجع إلى الإله الموصوف بما تقدم من الصفات. واسم الجلالة خبر أول {وَرَبّكُمْ} خبر ثانٍ و{لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ} خبر ثالث، و{خَٰلِقُ كُلّ شَىْء} خبر رابع والفاء في قوله {فَٱعْبُدُوهُ} لمجرد السببية من غير عطف، أي ثبت أن إله العالم فرد صمد منزه عن الشريك والنظير والضد والأولاد وذلك الجامع لهذه الصفات العظيمة هو الله المستحق للعبادة مالك أمركم لا شريك له في ذلك خالق ما كان وما يكون فاعبدوه ولا تعبدوا أحداً غيره، وللعلماء في إثبات التوحيد طرق كثيرة ومن جملتها هذه الطريقة وتقريرها من وجوه:

الأول: أن يقال الصانع الواحد كافٍ في كونه إلهاً للعالم ومدبراً له، وما زاد على الواحد فالقول فيه متكافىء لأنه لم يدل الدليل على ثبوته لأنه يلزم إما إثبات آلهة لا نهاية لها وهو محال، أو إثبات عدد معين مع أنه ليس ذلك العدد أولى من سائر الأعداد وهو محال أيضاً، وإذا كان القسمان باطلين لم يبقَ إلا القول بالتوحيد.

والثاني: أن يقال إن الإله القادر على كل الممكنات، العالم بكل المعلومات كافٍ في تدبير العالم. فلو قدرنا إلهاً ثانياً فإما أن يكون فاعلاً أو لا، فإن كان فاعلاً صار مانعاً للآخر عن تحصيل مقدوره وذلك يوجب كون كل واحد منهما سبباً لعجز الآخر وهو محال، وإن لم يكن فاعلاً كان ناقصاً معطلاً وذلك لا يصلح للإلهية.

والثالث: أن يقال أن الإله الواحد لا بدّ وأن يكون كاملاً في صفات الإلهية فلو فرضنا إلهاً ثانياً فإما أن يكون مشاركاً للأول في جميع صفات الكمال أو لا فإن كان مشاركاً في ذلك فإما أن يكون متميزاً عن الأول أو لا، فإن لم يكن متميزاً عنه بأمر من الأمور لم تحصل الأثنينية، وإن امتاز بصفات الكمال لم تكن جميع صفاته مشتركة بينهما وإن امتاز بغير صفات الكمال، فلذلك نقصان. فثبت بهذه الوجوه الثلاثة أن الإلهٰ الواحد كافٍ في تدبير العالم وإيجاده وأن الزائد يجب نفيه {وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ} أي حافظ فيجب أن يعلم كل مكلف أنه لا حافظ إلا الله ولا مصلح للمهمات إلا الله فحينئذ ينقطع طمعه عن كل ما سواه ولا يرجع في مهم من المهمات

إلا إليه ويقال: أي كفيل بـأرزاق خلقـه {لاَّ تُـدْرِكُهُ ٱلأَبْصَـرُ} أي لا تراه الأبصار في الدنيا وهو تعالى يراه المؤمنون في الآخرة لقوله صلى اللـه عليـه وسـلم: «سـترون ربكـم كمـا ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته» فالتشبيه واقع في تشبيه الرؤية بالرؤية في الوضوح لا في تشبيه المرئـي بالمرئي، واتفق الجمهـور أنـه صـلى اللـه عليـه وسـلم قـرأ قوله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيـادة فقـال: «الحسـنى هي الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله».

وروي أن الصحابة اختلفوا في أن النّبيّ صلى الله عليه وسلم هل رأى اللـه تعـالى ليلـة المعـراج أو لا، ولـم يكفر بعضهم بعضاً بهذا السبب وما نسبه إلى الضلالة وهذا يدل على أنهم كانوا مجمعين على أنـه لا امتنـاع عقلاً فـي رؤية الله تعالى. وقيل: المعنـى لا تحيـط بـه تعـالى الأبصـار فـي الـدنيا ولا فـي الآخـرة لعـدم انحصـاره {وَهُـوَ يُـدْرِكُ ٱلأَبْصَـرَ} أي واللـه تعـالى مـدرك لحقيقـة الأبصـار {وَهُـوَ ٱللَّطِيفُ} فيلطف عن أن تدركه الأبصار { ٱلْخَبِيرُ} أي العـالم بكل لطيف فلا يلطف شيء عـن إدراكـه. وقيـل: إنـه تعـالى لطيف بعباده حيث يثني عليهم عند الطاعة ويأمرهم بالتوبة عنـد المعصـية، ولا يقطـع عنهـم كـثرة رحمتـه سـواء كـانوا مطيعين أو عصـاة. وقيـل: إنـه تعـالى لطيـف بهـم بحيـث لا يأمرهم فوق طاقتهم وينعم عليهم بما هو فوق اسـتحقاقهم {قَدْ جَآءَكُمْ بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ} أي جاءكم آيات القرآن كائنـة من ربكم وسميت تلك الآيات بصـائر لأنهـا أسـباب لحصـول الأنوار للقلـوب. وقـوله تعـالى: {قَـدْ جَـاءكُمُ} الآيـة اسـتئناف وارد على لسان النّبيّ صلى الله عليه وسـلم {فَمَـنْ أَبْصَـرَ فَلِنَفْسِهِ} أي فمن اهتدى بآيات القـرآن فـآمن فنفـع إهـدائه لنفسه {وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا} أي ومن ضل عنها بأن كفر بهـا فمضرة ضلالته وكفره على نفسه {وَمَآ أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِحَفِيـظٍ} أي لأعمالكم وإنما أنا منـذر واللـه تعـالى هـو الـذي يحفـظ أعمالكم ويجازيكم عليها.

{وَكَذٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلآيَٰتِ} أي مثل ذلك الإتيان البديع نـأتي بالآيـات متـواترة حـالاً بعـد حـال لتلزمهـم الحجـة {وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ} قرأه ابن كثير وأبو عمـرو بـالألف وفتـح التـاء. أي ليقـول بعضـهم ذاكـرت يـا محمـد أهـل الأخبـار الماضية فيزداد كفراً على كفر وتثبيتاً لبعضهم فيزداد إيماناً على إيمان. وذلـك لأن النّـبيّ صـلى اللـه عليـه وسـلم كـان

يظهر آيات القرآن نجماً نجماً، والكفار كانوا يقولون: إن محمداً يضم هذه الآيات بعضها إلى بعض يتفكر فيها ويصلحها آية فآية، ثم يظهرها ولو كان هذا بوحي نازل إليه من السماء فلم لم يأت بهذا القرآن دفعة واحدة. كما أن موسى عليه السلام أتى بالتوراة دفعة واحدة أي فإن تكرير هذه الآيات حالاً بعد حال هي التي أوقعت الشك للقوم في أن محمداً صلى الله عليه وسلم إنما يأتي بهذا القرآن على سبيل المدارسة مع التفكر والمذاكرة مع أقوام آخرين.

وقرأ ابن عامر «درست» بفتح السين وسكون التاء أي هذه الأخبار التي تلوتها علينا قديمة قد انمحت وتكررت على الأسماع، كقولهم: أساطير الأولين. وقرأ الباقون «درست» بدون الألف وسكون السين وفتح التاء أي حفظت وأتقنت بالدرس أخبار الأولين كقولهم: أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً {وَلِنُبَيِّنَهُ} أي الآيات {لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} وهم أولياء الله الذين هداهم إلى سبيل الرشاد {ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ} أي لزم العمل بما أنزل إليك من ربك ولا يصر ذلك القول سبباً لفتورك في تبليغ الرسالة والدعوة {لاۤ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ} يجب طاعته ولا يجوز الإعراض عن تكاليفه {وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ} أي اترك في الحال مقابلتهم فيما يأتونه من سفه واعدل إلى الطريق الذي يكون أقرب إلى القبول وأبعد عن التغليظ والتنفير {وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ} عدم إشراكهم {مَآ أَشْرَكُواْ} أي لا تلتفت يا أشرف الخلق إلى سفاهات هؤلاء الكفار الذين قالوا لك: إنما جمعت هذا القرآن من مذاكرة الناس ولا يثقلن عليك كفرهم، فإنا لو أردنا إزالة الكفر عنهم لقدرنا ولكنا تركناهم مع كفرهم فلا ينبغي أن تشغل قلبك بكلماتهم {وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً} أي رقيباً من جهتنا تحفظ أعمالهم عليهم {وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ} أي وما أنت يا أكرم الرسل حافظ عليهم من جهتهم فتدبر مصالحهم وتقوم بأمورهم وتكفل أرزاقهم.

{وَلاَ تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ} أي ولا تسبوا أيها المؤمنون من يعبدون الأصنام من حيث عبادتهم لآلهتهم كأن تقولوا: تباً لكم ولما تعبدون من الأصنام مثلاً فيسبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم تجاوزاً عن الحق إلى الباطل بجهالة منهم بما

يجب عليهم، فإن الصحابة متى شتموهم كانوا يشتمون رسول الله صلى الله عليه وسلم فالله تعالى أجرى شتم الرسول مجرى الله تعالى، لأن الكفار كانوا مقربين بالله تعالى وكانوا يقولون: إنما حسنت عبادة الأصنام لتصير شفعاء لهم عند الله تعالى. أو المعنى ولا تسبوا الأصنام الذين كان المشركون يعبدونهم فيسبوا الله للظلم بغير علم لأنهم جهلة بالله تعالى لأن بعضهم كان قائلاً بالدهر ونفي الصانع. قال قتادة: كان المؤمنون أوثان الكفار فيردون ذلك عليهم فنهاهم الله عن ذلك لئلا يسبوا الله فإنهم قوم جهلة لا علم لهم بالله عز وجل اه. وإنما نهوا عن سب الأصنام، وإن كان مباحاً لما ينشأ عن ذلك من المفاسد وهو سب الله وسب رسوله. فظاهر الآية كان نهياً عن سب الأصنام وحقيقتها النهي عن سب الله تعالى لأنه سبب لذلك وفي ذلك دلالة على أن الطاعة إذا أدّت إلى معصية راجحة وجب تركها فإن ما يؤدي إلى الشر شرّ {كَذَلِكَ} أي مثل تزيين عبادة الأصنام للمشركين {زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ} أي لأمم الكفرة {عَمَلَهُمْ} أي شرّهم وفسادهم بإحداث ما يحملهم عليه فإن المعاصي سموم قاتلة قد برزت في الدنيا بصورة تستحسنها نفوس العصاة، وكذا الطاعات فإنها مع كونها أحسن الأحاسن قد ظهرت عندهم بصورة مكروهة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات» وفي هذه الآية دلالة على تكذيب القدرية والمعتزلة حيث قالوا: لا يحسن من الله تعالى خلق الكفر وتزيينه {ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَّرْجِعُهُمْ} بالبعث بعد الموت {فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} في الدنيا على الاستمرار من السيئات المزينة لهم فأعمال الكفرة قد برزت لهم في هذه النشأة بصورة مزينة يستحسنها الغواة ويستحبها الطغاة، وستظهر في النشأة الآخرة بصورتها الحقيقية المنكرة الهائلة فعند ذلك يعرفون أن أعمالهم ما ذا. فعبر عن إظهارها بصورها الحقيقية بالإخبار بها لما أن كلاً منهما سبب للعلم بحقيقتها كما هي {وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ} أي قسم كفار مكة بالله غاية أيمانهم {لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ} أي معجزة كما طلبوا {لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا} أي قالوا لسيدنا رسول الله: إن هذا القرآن كان أمره فليس من جنس المعجزات ألبتة، ولو أنك يا محمد جئتنا بمعجزة قاهرة لآمنا بك وحلفوا على ذلك. وقال محمد بن

كعب القرظي: قالت قريش: يا محمد إنك تخبرنا أن موسى ضرب الحجر بالعصا فانفجر الماء وأن عيسى أحيا الميت وأن صالحاً أخرج الناقة من الجبل فأتنا بآية لنصدقك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما الذي تحبون؟» فقالوا: أن تجعل لنا الصفا ذهباً، وحلفوا لئن فعل ليتبعونه أجمعون فقام صلى الله عليه وسلم يدعو فجاءه جبريل فقال: إن شئت كان ذلك ولئن كان فلم يصدقوك ليعذبهم الله، وإن تركتهم تاب الله على بعضهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بل يتوب على بعضهم» فأنزل الله تعالى هذه الآية {قُلْ إِنَّمَا ٱلآيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ} أي إنه تعالى هو مختص بالقدرة على أمثال هذه الآيات دون غيره {وَمَا يُشْعِرُكُمْ} أي أيّ شيء يعلمكم أيها المؤمنون بإيمانهم أي لا تعلمون ذلك {أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ}.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو «إنها» بكسر الهمزة على الاستئناف. والباقون بالفتح فهي بمعنى لعل ويقوي هذا الوجه قراءة أبي لعلها إذا جاءتهم لا يؤمنون {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ} أي وما يشعركم أنا نقلب أفئدتهم عن إدراك الحق فلا يفهمونه ونقلب أبصارهم عن اجتلاء الحق فلا يبصرونه {كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ} أي بما جاء صلى الله عليه وسلم من الآيات {أَوَّلَ مَرَّةٍ} أي فلا يؤمنون عند نزول مقترحهم لو نزل كما لم يؤمنوا عند نزول الآيات السابقة على اقتراحهم كانشقاق القمر {وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} أي نتركهم في ضلالهم متحيرين لا نهديهم هداية المؤمنين {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰئِكَةَ} كما طلبوا فشهدوا على ما أنكروا {وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ} من القبور كما طلبوا بأن محمداً رسول الله والقرآن كلام الله {وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلاً}. قرأ عاصم وحمزة الكسائي بضمتين أي وجمعنا على المستهزئين زيادة على ما اقترحوه كل شيء من أصناف المخلوقات كالسباع والطيور كفلاء بصدق محمد صلى الله عليه وسلم. أو المعنى وحشرنا عليهم كل شيء نوعاً من سائر المخلوقات.

وقرأ نافع وابن عامر «قبلاً» بكسر القاف وفتح الباء أي حال كون الكفار معاينين للأصناف {مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ} بمحمد والقرآن {إِلاَّ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ} إيمانهم. أي ولو أظهر الله جميع تلك الأشياء العجيبة الغريبة لهؤلاء الكفار فإنهم

لا يؤمنون في حال من الأحوال الداعية إلى الإيمان إلا في حال مشيئته تعالى لإيمانهم. {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ} أي إن الكفار لو أتوا بكل آية لم يؤمنوا ولكن أكثر المسلمين يجهلون عدم إيمانهم عند مجيء الآيات لجهلهم عدم مشيئته تعالى لإيمانهم فيتمنون مجيئها طمعاً فيما لا يكون.

قال ابن عباس: المستهزؤون بالقرآن كانوا خمسة: الوليد بن المغيرة المخزومي، والعاص بن وائل السهمي، والأسود بن عبد يغوث الزهري، والأسود بن المطلب، والحرث بن حنظلة، ثم إنهم أتوا الرسول صلى الله عليه وسلم في رهط من أهل مكة وقالوا له: أرنا الملائكة يشهدوا بأنك رسول الله وابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم أحق ما تقوله أم باطل؟ أو ائتنا بالله والملائكة قبيلاً أي كفيلاً على صحة ما تدعيه فنزلت هذه الآية {وَكَذَلِكَ} أي كما جعلنا المستهزئين عدواً لك {جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَٰطِينَ ٱلإِنْسِ وَ ٱلْجِنِّ} أي جعلنا لكل نبي تقدمك عدواً مردة من الإنس والجن. فشياطين الإنس أشد تمرداً من شياطين الجن، لأن شيطان الجن إذا عجز عن إغواء المؤمن الصالح استعان على إغوائه بشيطان الإنس ليفتنه، وإضافة شياطين بمعنى من البيانية وهي بدل من «عدواً» وهو مفعول أول قدم على الثاني مسارعة إلى بيان العداوة {يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُوراً} أي يلقي شياطين الجن إلى شياطين الإنس تزيين القول بالباطل لكي يغروا به الإنس {وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ} عدم تزيين القوم لأجل الغرور {مَا فَعَلُوهُ} أي تزيين القول المتعلق بأمرك خاصة {فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} أي اترك الكفرة المستهزئين وافتراءهم بأنواع المكايد فإن لهم في ذلك عقوبات شديدة ولك عواقب حميدة {وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ ٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِٱلآخِرَةِ} أي ولكي تميل إلى هذا الزخرف قلوب الذين لا يؤمنون بالبعث بعد الموت {وَلِيَرْضَوْهُ} أي هذا الزخرف لأنفسهم {وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ} أي وليكتسبوا بسبب ارتضائهم له ما هم مكتسبون من الآثام فيعاقبوا عليها {أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَماً وَهُوَ ٱلَّذِى أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلاً} أي قل لهم أأميل إلى زخارف الشياطين فأطلب حكماً غير الله يحكم بيننا. والحال أنه تعالى هو الذي أنزل إليكم القرآن وأنتم أمة أمية لا تدرون ما تأتون وما تذرون مبيناً فيه الحق والباطل فلم

يبق في أمور الدين شيء من الإبهام، فأي حاجة بعد ذلك إلى الحكم وهو والحاكم عند أهل اللغة واحد لكن بعض أهل التأويل قال: الحكم أكمل من الحاكم لأن الحكم لا يحكم إلا بالحق والحاكم قد يجوز، ولأن الحكم من تكرر منه الحكم والحاكم يصدق بمرة {وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ} أي التوراة والإنجيل والزبور {يَعْلَمُونَ أَنَّهُ} أي القرآن {مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ} ملتبساً {بِٱلْحَقِّ}.

قرأ ابن عامر وحفص «منزل» بتشديد الزاي. والباقون بسكون النون {فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ} أي من الشاكين في أن علماء أهل الكتاب يلعمون أن هذا القرآن حق وأنه منزل من عند الله {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً} أي كفى القرآن من جهة صدقه في أخباره ومن جهة عدله في أحكامه، وكفى في بيان ما يحتاج المكلفون إليه إلى قيام القيامة علماً وعملاً وفي كونها معجزة دالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم.

قرأ عاصم وحمزة والكسائي «كلمت» على التوحيد دون ألف. والباقون بألف على الجمع و«ترسم» بالتاء المجرورة على كل من قراءة الجمع وقراءة الإفراد، وكذا كل موضع اختلف فيه القراء جمعاً وإفراداً {لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِ} أي لا أحد يبدل شيئاً من القرآن بما هو أصدق وأعدل ولا بما هو مثله {وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ} بالمقال والأعمال {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلأَرْضِ} أي وإن تطع يا أشرف الخلق كفار الناس فيما يعتقدونه من إحقاق الباطل وإبطال الحق {يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ} أي عن الطريق الموصل إلى الله {إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ ٱلظَّنَّ} أي ما يتبعون في إثبات مذهبهم إلا رجوعهم إلى تقليد أسلافهم وهو ظنهم أن آباءهم كانوا على الحق فهم على آثارهم مقتدون {وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ} أي يكذبون فإن رؤساء أهل مكة منهم أبو الأحوص مالك بن عوف الجشمي، وبديل بن ورقاء الخزاعي وجليس بن ورقاء الخزاعي قالوا للمؤمنين: إن ما ذبح الله خير مما تذبحون أنتم بسكاكينكم.

وروي أن المشركين قالوا للنبيّ: أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قتلها؟ فقال: «الله قتلها». قالوا: أنت تزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلال وما قتلها الكلب والصقر حلال وما قتله الله حرام {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ} أي فإن هؤلاء الكفار كاذبون

في ادعاء اليقين والله عالم بكونهم متحيرين في سبيل الضلال تائهين في أودية الجهل، أي فإنك إذا عرفت ذلك ففوّض أمرهم إلى خالقهم لأنه عالم بالمهتدى والضلال فيجازي كل واحد بما يليق بعمله {فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِ مُؤْمِنِينَ} وهذا أمر متفرع من النهي عن اتباع المضلين، وذلك أنهم كانوا يقولون للمسلمين: إنكم تزعمون أنكم تعبدون الله فما قتله الله أحق أن تأكلوه مما قتلتموه أنتم. فقال الله للمسلمين: إن كنتم متحققين بالإيمان فكلوا مما ذكر اسم الله عليه وهو المذكى ببسم الله خاصة لا مما ذكر عليه اسم غيره فقط أو مع اسمه تعالى أو مات حتف أنفه. {وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ} أي وأيّ سبب حاصل لكم في أن لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه، وأن تأكلوا من غيره. والحال أنه قد بيَّن لكم ما حرم عليكم بقوله تعالى: {قُل لا أَجِدُ فِيمَا أُوْحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ} (الأنعام: 541) فهذا وإن كان متأخراً في التلاوة فلا يمنع أن يكون هو المراد لأن التأخر في هذا قليل. وأيضاً التأخر في التلاوة لا يوجب التأخر في النزول، أو بقوله تعالى في أول سورة المائدة: {حُرّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ} (المائدة: 3) الآية. لأن الله تعالى علم أن سورة المائدة متقدمة على سورة الأنعام في الترتيب لا في النزول. {إِلاَّ مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ} أي إلا ما دعتكم الضرورة إلى أكله بسبب شدة المجاعة مما حرم عليكم فهو حلال لكم.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر ببناء «فصل» و«حرم» للمفعول. ونافع وحفص عن عاصم ببنائهما للفاعل. وحمزة والكسائي، وأبو بكر عن عاصم ببناء الفعل الأول للفاعل وبناء الثاني للمفعول {وَإِنَّ كَثِيرًا} من الذين يناظرونكم في إحلال الميتة ويقولون لما حل ما تذبحونه أنتم فبأن يحل ما يذبحه الله أولى وهم أبو الأحوص وأصحابه، أو ممن اتخذ البحائر والسوائب وهو عمرو بن لحي فمن دونه من أضرابه فإنه أول من غير دين إسماعيل {لَّيُضِلُّونَ}.

قرأ عاصم وحمزة والكسائي بضم الياء. والباقون بفتحها {بِأَهْوَائِهِم} أي بسبب اتباعهم شهواتهم {بِغَيْرِ عِلْمٍ} أي ملتبسين بغير علم مأخوذ من الشريعة {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ

أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ} أي الذين تجاوزوا الحق إلى الباطل {وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلإِثْمِ وَبَاطِنَهُ} أي اتركوا الإعلان بالزنا والاستسرار به وأهل الجاهلية يعتقدون حل السر منه.

وقال ابن الأنباري أي وذروا الإثم من جميع جهاته {إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلإِثْمَ} في الدنيا {سَيُجْزَوْنَ} في الآخرة {بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ} أي يكسبون إن لم يتوبوا وأراد الله عقابهم. أما إذا تاب المذنب من الذنب توبة صحيحة لم يعاقب وإذا لم يتب فهو في مشيئة الله إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه بفضله.

{وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ} وهو الميتة وما ذبح على ذكر الأصنام {وَإِنَّهُ} أي الأكل مما لم يذكر اسم الله بغير ضرورة أو إن ما ذكر عليه اسم غير الله {لَفِسْقٌ} أي خروج عما يحل وأجمع العلماء على أن أكل ذبيحة المسلم التي ترك التسمية عليها لا يفسق.

وروي عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم: أنه قال: «ذكر الله مع المسلم سواء قال: أو لَمْ يَقُلْ ويحمل هذا الذكر على ذكر القلب». {وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ} أي إن إبليس وجنوده وسوسوا إلى المشركين. أو المعنى أن مردة المجوس من أهل فارس كتبوا إلى مشركي قريش، وذلك لما نزل تحريم الميتة سمعه المجوس فكتبوا إلى قريش أن محمداً وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله ثم يزعمون أن ما يذبحونه حلال وما يذبحه الله حرام فوقع في نفس ناس من المسلمين من ذلك شيء، فأنزل الله تعالى هذه الآية {لِيُجَٰدِلُوكُمْ} في أكل الميتة {وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ} في استحلال الميتة {إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ}.

قال الزجاج: وهذا دليل على أن كل من أجل شيئاً مما حرم الله تعالى أو حرم شيئاً مما أحل الله تعالى فهو مشرك وإنما سمي مشركاً لأنه أثبت حاكماً سوى الله تعالى وهذا هو الشرك {أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا} أي أو من كان كافراً فهديناه إلى الإيمان {لَهُ نُورًا يَمْشِي} عظيماً وهو نور الوحي الإلهي {بِهِ فِى} أي بسببه {ٱلنَّاسِ كَمَن} أي فيما بين الناس آمناً من جهتهم {مَّثَلُهُ فِي} أي صفته {ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ} أي ظلمات الكفر والطغيان وعمى البصيرة {بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ} أي من تلك الظلمات. فإذا دام الكافر في ظلمات الجهل والأخلاق الذميمة صارت تلك

الظلمات كالصفة الذاتية يعسر إزالتها عنه، وإنما جعل الكفر موتاً لأنه جهل والجهل يوجب الحيرة، فهو كالموت الذي يوجب السكون، والكافر ميتاً لأنه لا يهتدي إلى شيء كالجاهل {زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} أي مثل تزيين المؤمنين بالإيمان والنور زين من جهة الله بطريق الخلق ومن جهة الشياطين بطريق الزخرفة للكافرين ما استمروا على عمله.

قال زيد ابن أسلم والضحاك: نزلت هذه الآية في عمر بن الخطاب وأبي جهل. وقال عكرمة: نزلت في عمار بن ياسر وأبي جهل. وقال ابن عباس: إن أبا جهل رمى النّبيّ صلى الله عليه وسلم بفرث فأخبر بذلك حمزة عند قدومه من صيد والقوس بيده وهو لم يؤمن يومئذ فعمد إلى أبي جهل وجعل يضرب رأسه بالقوس، فقال له أبو جهل وقد تضرع إليه: يا أبا يعلى أما ترى ما جاء به سفه عقولنا وسب آلهتنا وخالف آباءنا فقال حمزة: أنتم أسفه الناس تعبدون الحجارة من دون الله. أشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله. فأسلم حمزة يومئذ فنزلت هذه الآية {وَكَذٰلِكَ} أي وكما جعلنا في مكة صناديدها رؤساء ليمكروا فيها {جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ} من سائر القرى {أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا} و«أكابر» مفعول ثانٍ و«مجرميها» مفعول أول والظرف لغو وهو متعلق بنفس الفعل قبله أي جعلنا في كل بدة فساقها عظماء {لِيَمْكُرُواْ فِيهَا} أي ليفعلوا المكر فيها وهذا دليل على أن الخير والشر بإرادة الله، وإنما جعل المجرمين أكابر لأنهم أقدر على الغدر والمكر وترويج الباطل على الناس من غيرهم، وإنما حصل ذلك لأجل رياستهم وذلك سنة الله أنه جعل في كل قرية أتباع الرسل ضعفاءهم وجعل فساقهم أكابرهم.

وقال مجاهد: جلس على كل طريق من طرق مكة أربعة نفر يصرفون الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ويقولون لكل من يقدم: هو كذاب ساحر كاهن، فكان هذا مكرهم {وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ} أي وما يحيق شر مكرهم إلا بهم {وَمَا يَشْعُرُونَ} بذلك أصلاً بل يزعمون أنهم يمكرون بغيرهم. {وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ} أي وإذا جاءت مشركي العرب الوليد بن المغيرة وعبد ياليل، وأبا مسعود

الثقفي آية من القرآن تأمرهم باتباع محمد صلى الله عليه وسلم وتخبرهم بصنيعهم قالوا: لن نصدقك حتى يوحى إلينا ويأتينا جبريل فيخبرنا أنك رسول الله صادق. قال تعالى رداً عليهم: {ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} أي الله أعلم من يليق بإرسال جبريل إليه لأمر من الأمور، وهذا إعلام بأنهم لا يستحقون ذلك التشريف. وهذا المعنى قول الحسن ومنقول عن ابن عباس. وقيل: معنى الآية وإذا جاءتهم آية على صدق النّبيّ صلى الله عليه وسلم قالوا: لن نؤمن برسالته أصلاً حتى نؤتى نحن من الوحي والنبوة مثل إيتاء رسل الله. قال تعالى: إنه تعالى يعلم من يستحق الرسالة فيشرفه بها، ويعلم من لا يستحقها وأنتم لستم أهلاً لها، ولأن النبوة لا تحصل لمن يطلبها خصوصاً لمن عنده حسد ومكر وغدر.

وقرأ حفص وابن كثير رسالته على التوحيد. والباقون على الجمع ويستجاب الدعاء بين هاتين الجلالتين، وهذا دعاء عظيم يدعى به بينهما وهو: «اللهم من الذي دعاك فلم تجبه، ومن الذي استجارك فلم تجره ومن الذي استعان بك فلم تعنه ومن الذي توكل عليك فلم تكفه، يا غوثاه يا غوثاه يا غوثاه، بك أستغيث أغثني يا مغيث، واهدني هداية من عندك، واقض حوائجنا واشف مرضانا، واقضِ ديوننا، واغفر لنا ولآبائنا ولأمهاتنا بحق القرآن العظيم والرسول الكريم برحمتك يا أرحم الراحمين» {سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ} أي أشركوا. وليداً أو أصحابه بقولهم: لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله {صَغَارٌ} أي حقارة {عِندَ ٱللَّهِ} أي في الآخرة فلا حاكم فيها ينفذ حكمه سواه {وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ} أي بسبب مكرهم بقولهم ذلك وحسدهم للنبي وتكذيبهم له {فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ} أي يرشده لدينه {يَشْرَحْ صَدْرَهُ} أي قلبه {لِلإِسْلاَمِ} أي لقبول الإسلام {وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ} أي يتركه كافراً {يَجْعَلْ صَدْرَهُ} أي قلبه {ضَيِّقاً} كضيق الزج في الرمح.

قرأه ابن كثير ساكنة الياء. والباقون مشددة الياء مكسورة {حَرَجاً}. قرأ نافع وأبو بكر عن عاصم بكسر الراء أي شديد الضيق. والباقون بفتحها أي مثل المواضع الكثيرة الأشجار المشتبكة التي لا طريق فيها فلا يصل إليها راعية ولا وحشية {كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ} أي كأنه

يكلف الصعود إلى السماء. قرأه ابن كثير ساكنة الصاد، وقرأه أبو بكر عن عاصم بتشديد الصاد وبالألف. والباقون بتشديد الصاد والعين بغير ألف ومعنى الآية فمن يرد الله أن يهديه قوَّى قلبه في ما يدعوه إلى الإيمان، بأن اعتقد أن نفعه زائد وخيره راجح وربحه ظاهر، فمال طبعه إليه وقويت رغبته في حصوله، وحصل في القلب استعداد شديد لتحصيله، ومن يرد أن يضله ألقى في قلبه ما يصرفه عن الإيمان ويدعوه إلى الكفر، بأن اعتقد أن شر الإيمان زائد وضرره راجح فعظمت النفرة عنه فإن الكافر إذا دعي إلى الإسلام شق عليه جداً كأنه قد كلف أن يصعد إلى السماء ولا يقدر على ذلك. أو المعنى كأن قلب الكافر يصعد إلى السماء تكبراً عن قبول الإسلام {كَذٰلِكَ} أي مثل جعل الله صدرهم ضيقاً {يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ} أي يسلط الله الشيطان {عَلَى ٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ} أي في قلوبهم {وَهَـٰذَا} أي كون الفعل متوقفاً على الداعي الحاصل من الله تعالى {صِرٰطُ رَبِّكَ} أي لأن العلم بذلك يؤدي إلى العلم بتوحيد الله {مُسْتَقِيماً} فكل فعل العباد بقضاء الله تعالى وقدره {قَدْ فَصَّلْنَا ٱلآيَـٰتِ} أي قد ذكرناها فصلاً فصلاً بحيث لا يختلط واحد منها بالآخر {لِقَوْمٍ يَـذَّكَّرُونَ} فيعلمون أن كل ما يحدث من الحوادث خيراً كان أو شراً بقضاء الله تعالى لأنه لا يترجح أحد طرفي الممكن على الآخر إلا المرجح وهو الله تعالى {لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَـٰمِ} أي للمتذكرين دار الله المنزه عن النقائص وهي الجنة {عِندَ رَبِّهِمْ} أي أنها معدة عنده تعالى موصوفة بالشرف إلى حيث لا يعرف كنهها غيره تعالى {وَهُوَ وَلِيُّهُم} أي متكفل لهم بجميع مصالحهم في الدين والدنيا {بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} أي بسبب أعمالهم الصالحة {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا} قلنا {يٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ}.

وقرأ حفص بالياء أي يوم يحشر الله الخلق جميعاً يقول: يا جماعة الشياطين {قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلإِنْسِ} أي قد أكثرتم من إغواء الإنس {وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلإِنْسِ} أي وقال الذين أطاعوا الشياطين الذين هم الإنس: {رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ} فاستمتاع الإنس بالشياطين هو أن الشياطين كانوا يدلون الإنس على أنواع الشهوات واللذات والطيبات، ويسهِّلون تلك الأمور عليهم واستمتاع الشياطين بالإنس هو أن الإنس كانوا يطيعون الشياطين فيما يأمرونهم به وينقادون لحكمهم {وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيۤ أَجَّلْتَ

لَنَا} أي أدركنا وقت موتنا الذي عينته لنا {قَالَ} تعالى: {ٱلنَّارُ مَثْوَاكُمْ} أي منزلكم يا جماعة الجن والإنس {خَٰلِدِينَ فِيهَآ} أي في النار منذ تبعثون {إِلاَّ مَا شَآءَ ٱللَّهُ} من مقدار حشرهم من قبورهم ومن مقدار محاسبتهم {إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} أي فيما يفعله من ثواب وعقاب وسائر وجوه المجازاة.

{وَكَذٰلِكَ} أي مثل تمكين الشياطين من إضلال الإنس {نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ} من الإنس {بَعْضاً} آخر منهم {بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} أي بسبب كون ذلك البعض مكتسباً للظلم.

قال علي رضي الله عنه: لا يصلح للناس إلا أمير عادل أو جائر فأنكروا قوله: أو جائز. فقال: نعم، يؤمن السبيل ويمكن من إقامة الصلوات وحج البيت. وروي عن ابن عباس أنه قال: إن الله تعالى إذا أراد بقوم خيراً ولى أمرهم خيارهم وإذا أراد بقوم شر ولّى أمرهم شرارهم. وروي أن أبا ذر سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم الإمارة فقال له: إنك ضعيف وإنها لأمانة وهي في القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدَّى الذي عليه فيها. {يٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ} والصحيح أن الرسل إنما كانت من الإنس خاصة وقد قام الإجماع على أن النّبيّ صلى الله عليه وسلم مرسل للإنس والجن. والمراد برسل الجن هم الذين سمعوا القرآن من النّبيّ صلى الله عليه وسلم ثم ولوا إلى قومهم منذرين. فالمراد بالرسل ما يعم رسل الرسل، فالله تعالى إنما بَكَتَ الكفار بهذه الآية لأنه تعالى أزال العذر وأزاح العلة بسبب أنه أرسل الرسل إلى الكل مبشرين ومنذرين، فإذا وصلت البشارة والنذارة إلى الكل بهذا الطريق فقد حصل ما هو المقصود من إزاحة العذر وإزالة العلة {يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَٰتِي} أي يتلونها عليكم مع التوضيح {وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا} أي ويخوفونكم لقاء عذابي في يومكم هذا وهو يوم الحشر الذي عاينوا فيه ما أعد لهم من أفانين العقوبات الهائلة {قَالُواْ} عند ذلك التوبيخ الشديد {شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا} أن الرسل أتونا قد بلغوا الرسالة وأنذرونا عذاب يومنا هذا {و} إنما وقعوا في ذلك الكفر بسبب أنهم {وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا} أي اغتروا من الدنيا بما في الزهرة والنعيم {وَشَهِدُواْ} في الآخرة {عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ} في الدنيا {كَٰفِرِينَ} فيهم

وإن بالغوا في عداوة الأنبياء والطعن في شرائعهم ومعجزاتهم أقروا على أنفسهم بالكفر في عاقبة أمرهم {ذٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ} أي شهادتهم على أنفسهم بالكفر ثابت لانتفاء كون ربك مهلك القرى بسبب ظلم فعلوه قبل أن ينبهوا على بطلانه برسول وكتاب. أو المعنى إرسال الرسل ثابت لأن الشأن لم يكن ربك مهلك أهل القرى ملتبسين بظلم وهم غافلون عن تبليغ الرسل وعن أمرهم ونهيهم {وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ} أي ولكل عامل من الجن والإنس مراتب من أعمالهم صالحة كانت أو سيئة {وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} أي فلا يترك شيئاً مما يستحق كل عامل من الفريقين من الجزاء فيجزي كلاً بما يليق به من ثواب أو عقاب.

وقرأ ابن عامر وحده «تعملون» على الخطاب {وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ} أي إن تخصيص الله المطيعين بالثواب والمذنبين بالعذاب ليس لأجل أنه تعالى محتاج إلى طاعة المطيعين أو ناقص بمعصية المذنبين فإنه تعالى غني لذاته عن جميع العالمين ومع كونه تعالى غنياً فإن رحمته عامة كاملة. ومن رحمته تعالى على الخلق ترتيب الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية. ومن رحمته تعالى إرسال الرسل وعدم استئصالهم بالهلاك بذنوبهم في وقت واحد {إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ} أيها العصاة {وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ} أي ويوجد من بعد إذهابكم خلقاً آخر مخالفاً للجن والإنس فتخصيص الرحمة بهؤلاء ليس لأجل أنه لا يمكنه إظهار رحمته إلا بخلق هؤلاء {كَمَآ أَنشَأَكُمْ مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ} أي وينشىء الله إنشاءً كائناً كإنشائكم من نسل قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم في العصيان. أي فكما أن الله تعالى قادر على تصوير هذه الأجسام بهذه الصورة الخاصة كذلك قادر على تصويرهم بصورة مخالفة لها {إِنَّ مَا تُوعَدُونَ} من مجيء الساعة {لَأٰتٍ} أي لواقع لا بد لأنهم كانوا ينكرون القيامة وكل ما تعلق بالوعد من الثواب والعقاب فهو آت لا محالة {وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ} أي لستم بخارجين عن قدرتنا وحكمنا.

{قُلْ} يا أشرف الخلق لكفار قريش: {يٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ} أي على أقصى إمكانكم واستطاعتكم واثبتوا على حالتكم من الكفر والعداوة {إِنِّى عَامِلٌ} بما أمرت به

من الثبات على حالتي من الإسلام والمصابرة {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ} أي فسوف تعرفون أي أحد الفريقين له العاقبة المحمودة وهي الاستراحة واطمئنان الخاطر أنحن أم أنتم وذلك حاصلة في الجنة.
وقرأ حمزة والكسائي «من يكون» بالياء {إِنَّهُ} أي الشأن {لاَ يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ} أي لا يفوز الكافرون بمطالبهم ألبتة فلا ينجون من عذاب الله تعالى {وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ} أي عين كفار مكة لله مما خلقه من الحرث والأنعام، وكذا من الثمار وسائر أموالهم نصيباً يصرفونه إلى الضيفان والمساكين ونصيباً من ذلك لآلهتهم وينفقونه على سدنتها ويذبحون ذبائح عندها فقالوا: هذا لله بكذبهم في جهة أنه تعالى يستحق ذلك من جهتهم لا في وجه التقرب به إليه وهذا لآلهتنا، ثم إن رأوا ما عينوه لله أزكى بدلوه بما لآلهتهم فأعطوا نصيب الله لسدنة الأصنام، وإن رأوا ما لآلهتهم أزكى تركوه لها فلم يصرفوه للمساكين بل يصرفونه للسدنة وكان إذا أصابهم قحط استعانوا بما جعلوه وأكلوا منه ووفروا ما جعلوه لآلهتهم ولم يأكلوا منه فإذا هلك ما جعلوه لها أخذوا بدله مما جعلوه لله ولا يفعلون كذلك فيما جعلوه لها وإن سقط مما جعلوه لله في نصيب الأوثان تركوه وقالوا: إن الله غني عن هذا وإن سقط مما جعلوه للأوثان في نصيب الله أخذوه وردوه إلى نصيب الصنم وقالوا: إنه فقير {سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ} أي بئس الذي يحكمون حكمهم من أنهم رجحوا جانب الأصنام على جانب الله ومن أنهم جعلوا شيئاً لغير الله تعالى مع أن الله تعالى الخالق للجميع ومن أنهم أحدثوا الحكم من قبل أنفسهم ولم يشهد بصحته عقل ولا شرع {وَكَذٰلِكَ} أي مثل ذلك التزيين وهو تزيين الشرك في قسمة الأموال بين الله والآلهة {زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ} بوأد إناثهم ونحر ذكورهم {شُرَكَآؤُهُمْ} أي أولياؤهم من الشياطين ومن السدنة.
قرأ العامة زين مبنياً للفاعل. وقتل نصباً على المفعولية وأولادهم خفضاً بالإضافة وشركاؤهم رفعاً على الفاعل. أي وهكذا زين لهم شياطينهم قتل أولادهم فأمروا بأن يئدوا بناتهم خشية الفقر والسبي وبأن ينحروا ذكورهم لآلهتهم،

فكان الرجل في الجاهلية يقوم فيحلف بالله لئن ولد له كذا من الذكور لينحرن أحدهم. كما حلف عبد المطلب لينحرن عبد الله. وقرأ ابن عامر وحده «زين» مبنياً للمفعول و«قتل» رفعاً على الفاعلية، وأولادهم نصباً على المفعولية وشركائهم خفضاً على إضافة المصدر إلى فاعله أي زين لكثير من المشركين قتل شركائهم أولادهم وهذه القراءة متواترة صحيحة، فقد قرأ ابن عامر على أبي الدرداء، وواثلة بن الأسقع، وفضالة بن عبيد، ومعاوية بن أبي سفيان، والمغيرة المخزومي. وقرأ أيضاً على عثمان وولد هو في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم {لِيُرْدُوهُمْ} أي يهلكوهم بالإغواء {وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ} أي وليخلطوا عليهم من دين إسماعيل عليه السلام أي ليدخلوا عليهم الشك في {دِينَهُمْ} لأنهم كانوا على دين إسماعيل فهذا الذي أتاهم بهذه الأوضاع الفاسدة أراد أن يزيلهم عن ذلك الدين الحق، واللام للتعليل إن كان التزيين من الشياطين وللعاقبة إن كان من السدنة {وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ} أي ما فعل كثير من المشركين قتل الأولاد بدفن البنات في حياتها وبنحر الأولاد الذكور للأصنام {فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} أي فاتركهم وكذبهم في قولهم: إن الله يأمرهم بقتل أولادهم فإن في ما شاء الله تعالى حكماً بالغة وذلك دليل على أن كل ما فعله المشركون فهو بمشيئة الله تعالى {وَقَالُواْ} أي المشركون الذين قسموا نصيب آلهتهم أقساماً ثلاثة {هَٰذِهِ} أي التي جعلناها للآلهة {أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ} أي زروع {حِجْرٌ} أي محرمة {لاَّ يَطْعَمُهَآ إِلاَّ مَن نَّشَآءُ} أي لا يأكل هذه الأنعام والحرث إلا خدمة الأوثان والرجال دون النساء {بِزَعْمِهِمْ} أي قالوا: ما ذكر ملتبسين بكذبهم ومن غير حجة {و} هذه {وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا} وهي البحائر والسوائب والحوامي والوصائل {و} هذه {وَأَنْعَٰمٌ لاَّ يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا} إذا ركبت وإذا حملت، وإذا ذبحت ونسبوا ذلك التقسيم إلى الله تعالى { ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ} وهذا إما مفعول له وعامله قالوا أو حال من ضميره أو مصدر مؤكد له لأن قولهم ذلك هو الافتراء {سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} أي إن الله سيكافئهم بسبب تقولهم عليه.

{وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ} أي ما ولد من البحائر والسوائب حياً حلال للذكور خاصة ومحرم

على جنس أزواجنا وهي الإناث وما ولد منها ميتاً أكله الرجال والنساء جميعاً {سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ} أي سيوصل الله لهم جزاء ذنوبهم وهو وصفهم بالتحليل والتحريم. فالواصف بذلك عمرو بن لحي وقدر رآه النّبيّ صلى الله عليه وسلم في جهنم يجر قصبه من دبره وكان يعلمهم تحريم الأنعام {إِنَّهُ حَكِيمٌ} في التحليل والتحريم {عَلِيمٌ} في وصفهم بذلك {قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوۤاْ أَوْلَـٰدَهُمْ} بالوأد للبنات وبالنحر للذكور {سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ} وهم ربيعة ومضر وأمثالهم من العرب وبنو كنانة لا يفعلون ذلك وسبب هذا الخسران لأن الولد نعمة عظيمة من الله على العبد فإذا سعى في إبطاله استحق الذم العظيم في الدنيا، لأن الناس يقولون: قتل ولده خوفاً من أن يأكل طعامه والعقاب العظيم في الآخرة وسببه خفة العقل لأن قتل الولد إنما يكون للخوف من الفقر والقتل أعظم ضرراً منه، والقتل ناجز والفقر موهوم وهذه السفاهة إنما نشأت من الجهل الذي هو أعظم المنكرات.

وقرأ أبو عمرو وابن عامر بتشديد التاء {وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ} فإن تحريم الحلال من أعظم أنواع الحماقة لأنه يمنع نفسه تلك المنافع ويستحق ذلك المنع أعظم أنواع العقاب أو أن الجراءة على الله أعظم الذنوب وهم قد ضلوا عن الرشد في مصالح الدين ومنافع الدنيا ولم يحصل لهم الاهتداء قط.

{وَهُوَ ٱلَّذِيۤ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ} أي وهو الذي خلق بساتين مرفوعات على ما يحملها من العروش والساق وملقيات على وجه الأرض ويقال: معروشات أي وهو ما غرسه الناس في البساتين وغير معروشات وهو ما أنبته الله في الجبال والبراري {***وَ} أنشأ {وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ} أي جميع الحبوب التي يقتات بها {مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ} أي مختلف المأكول من كل منهما في الهيئة والطعم {وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ} أي أنشأ شجرهما {مُتَشَٰبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ} في اللون أو الطعم {كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ} أي ثمر كل واحد من ذلك {إِذَآ أَثْمَرَ} ولو قبل النضج.

وقرأ حمزة والكسائي برفع الثاء والميم من ثمره {وَءَاتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ} وقرأ ابن عامر وأبو عمرو وعاصم بفتح الحاء أي اعزموا على إيتاء الزكاة لكل من

الزروع والثمار يوم الحصاد، ولا تؤخروه عن أول وقت يمكن فيه الإيتاء وإنما يجب إخراج الزكاة بعد التصفية والجفاف والأمر بإتيائها يوم الحصاد لئلا يؤخر عن وقت إمكان الأداء وليعلم أن وجوبها بالإدراك ولو في البعض لا بالتصفية. والمعنى آتوا حق كل ما وجب يوم الحصاد بعد التصفية وفائدة ذكر الحصاد أن الحق لا يجب بنفس الزرع وإدراكه وإنما يجب يوم حصاده وحصوله في يد مالكه لا فيما يتلف من الزرع قبل حصوله في يد مالكه وهذا يقتضي وجوب الزكاة في الثمار كما قاله أبو حنيفة ويقتضي ثبوت حق في القليل والكثير فالعشر واجب في القليل والكثير كما قاله أبو حنيفة {وَلاَ تُسْرِفُواْ} أي لا تجاوزوا الحد في الإعطاء والبخل حتى تمنعوا الواجب من الصدقة وتعطوا كله.

وروي أن ثابت بن قيس بن شماس عمد إلى خمسمائة نخلة فجذها ثم قسمها في يوم واحد ولم يدخل منها إلى منزله شيئاً فأنزل الله هذه الآية ولا تسرفوا وقد جاء في الخبر: «ابدأ بنفسك ثم بمن تعول» {إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ} فكل مكلف لا يحبه الله تعالى فهو من أهل النار {و} أنشأ {وَمِنَ ٱلأَنْعَٰمِ حَمُولَةً} أي ما يحمل الأثقال {وَفَرْشًا} أي ما يفرش للذبح أو ما ينسج من وبره وصوفه وشعره للفرش {كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ} أي كلوا بعض ما رزقكم الله وهو ما أحل الله لكم من الحرث والأنعام {وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ} أي ولا تسلكوا الطريق الذي يسوله لكم الشيطان بتحريم الحرث والأنعام {إِنَّهُ} أي الشيطان {لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} أي ظاهر العداوة فقد أخرج آدم من الجنة. وقال: لأحتنكن ذريته إلا قليلاً {ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ} أي أصناف أربعة ذكور من كل من الإبل والبقر والغنم، وأربعة إناث كذلك وهذا بدل من حمولة وفرشاً {مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ} بدل من ثمانية أزواج أي أنشأ من الضأن زوجين الكبش والنعجة {وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ} أي من المعز زوجين التيس والعنز {قُلْ} لهم إظهاراً لانقطاعهم عن الجواب {ءَآلذَّكَرَيْنِ} من ذينك النوعين وهما الكبش والتيس {حَرَّمَ} أي الله تعالى كما تزعمون أنه هو المحرم {أَمِ ٱلأُنثَيَيْنِ} وهما النعجة والعنز {أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلأُنثَيَيْنِ} أي أم ما حملت به إناث النوعين حرم الله تعالى ذكراً كان أو أنثى {نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ} أي أخبروني بعلم ناشىء

عن طريق الإخبار من الله بأنه حرم ما ذكر {إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ} في دعواكم إن الله حرم بحيرة أو سائبة أو وصيلة أو حاما {وَمِنَ ٱلإِبِلِ ٱثْنَيْنِ} أي وأنشأ من الإبل اثنين الجمل والناقة {وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ} ذكراً وأنثى {قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلأُنْثَيَيْنِ} من ذينك النوعين {أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا} أي بل أكنتم حاضرين حين أمركم الله بهذا التحريم. والمراد هل شاهدتم الله حرم هذا إن كنتم لا تؤمنون برسول فإنكم لا تقرون بنبوة أحد من الأنبياء فكيف تثبتون هذه الأحكام وتنسبونها إلى الله تعالى {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا} أي لا أحد أظلم ممن تعمد على الله كذباً بنسبة التحريم إليه.

قال المحققون: إذا ثبت أن من افترى على الله الكذب في تحريم مباح استحقّ هذا الوعيد الشديد فمن افترى على الله الكذب في مسائل التوحيد ومعرفة الذات والصفات والنبوات والملائكة ومباحث المعاد كان وعيده أشد وأشق {لِيُضِلَّ ٱلنَّاسَ} عن دين الله {بِغَيْرِ عِلْمٍ} حال من فاعل يضل أي ملتبساً بغير علم بما يؤدي بهم إليه أو حال من فاعل افترى. أي افترى عليه تعالى جاهلاً بصدور التحريم عنه تعالى. أي فمن افترى عليه تعالى جاهلاً بصدور التحريم عنه تعالى مع احتمال الصدور عنه كان أظلم ظالم فما ظنك بمن افترى عليه تعالى وهو يعلم أنه لم يصدر عنه {إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ} أي لا يهدي أولئك المشركين أي لا ينقلهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان {قُل لاَ أَجِدُ فِى مَآ أُوْحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ} أي قل يا أشرف الخلق لهؤلاء الجهلة الذين يحكمون بالحلال والحرام من عند أنفسهم لا أجد في القرآن طعاماً محرماً من المطاعم التي حرمتموها على آكل بأكله من ذكر أو أنثى {إِلاَ أَن يَكُونَ مَيْتَةً}. قرأ ابن كثير وحمزة «تكون» بالتأنيث «ميتة» بالنصب على تقدير إلا أن تكون المحرمة ميتة. وقرأ ابن عامر «تكون» بالتأنيث «ميتة» بالرفع على معنى إلا أن توجد ميتة أو إلا أن تكون هناك ميتة. وقرأ الباقون «يكون» بالتذكير «ميتة» بالنصب أي إلا أن يكون ذلك المحرم ميتة. وعلى قراءة ابن عامر يكون ما بعد هذا معطوفاً على أن يكون الواقعة مستثناة أي إلا حدوث ميتة {أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا} أي جارياً كالدماء

التي في العروق لا كالطحال والكبد {أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَـإِنَّهُ} أي الخنزير {رِجْسٌ} أي نجس فكل نجس يحـرم أكلـه {أَوْ فِسْقًا} أي ذبيحة خارجة عن الحلال {أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ} أي ذبـح علـى اسـم الأصـنام {فَمَـنِ ٱضْطُرَّ} أي فمـن أصـابه الضرورة الداعية إلى أكل الميتة {غَيْرَ بَاغٍ} في ذلـك علـى مضطر مثله {وَلاَ عَادٍ} أي متجاوز قدر الضرورة وهو الـذي يسد الرمق {فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُـورٌ رَّحِيـمٌ} أي فلا يؤاخـذه ربـك بالأكل من ذلك لأنـه مبـالغ فـي المغفـرة والرحمـة {وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ} أي وحرمنـا علـى اليهـود كل ذي مخلب وبرثـن {وَمِـنَ ٱلْبَقَـرِ وَٱلْغَنَـمِ حَرَّمْنَـا عَلَيْهِـمْ شُـحُومَهُمَآ} وهـو شـحم الكـرش والكلـى {إِلاَّ مَـا حَمَلَـتْ ظُهُورُهُمَـآ} أي إلا الشـحم الـذي حملتـه ظهورهمـا {أَوِ ٱلْحَوَايَـآ} أي أو إلا الشـحم الـذي حملتـه المبـاعر {أَوْ مَـا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ} أي أو إلا شحماً مختلطاً بعظـم مثـل شـحم الألية فإنه متصل بالعصعص فتلخص أن الـذي حـرم عليهـم من الشحوم هو شـحم الكـرش والكلـى وأن مـا عـدا ذلـك حلال لهم {ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ} أي ذلك التحريـم عاقبنـاهم بسـبب ظلمهـم وهـو قتلهـم الأنبيـاء وأخـذهم الربـا وأكلهـم أمـوال النـاس بالباطـل {وَإِنَّـا لَصَٰدِقُونَ} فـي الإخبـار عـن تخصيصـهم بهـذا التحريـم بسـبب بغيهـم وهـم كـاذبون فـي قولهم حرم ذلك إسرائيل علـى نفسـه بلا ذنـب منـا فنحـن مقتدون به {فَإِن كَذَّبُوكَ} أي فإن كذبك اليهود فـي الحكـم المذكور، أو كـذبك المشـركون فـي ادعـاء النبـوة والرسـالة وفـي تبليـغ هـذه الأحكـام {فَقُـل} لهـم: {رَّبُّكُـمْ ذُو رَحْمَـةٍ وَٰسِعَةٍ} فلذلك لا يعجـل عليكـم بالعقوبـة علـى تكـذيبكم فلا تغـتروا بـذلك فـإنه إمهـال لا إهمـال {وَلاَ يُـرَدُّ بَأْسُـهُ} أي عقابه إذا جاء وقته {عَنِ ٱلْقَـوْمِ ٱلْمُجْرِمِيـنَ} الـذين كـذبوك فيما تقول. وقيـل: المعنـى ذو رحمـة واسـعة للمطيعيـن وذو بـأس شـديد للمجرميـن {سَـيَقُولُ ٱلَّـذِينَ أَشْـرَكُواْ} عنـاداً لا اعتـذاراً عـن ارتكـاب هـذه القبائـح {لَـوْ شَـآءَ ٱللَّـهُ} عـدم إشراكنا وعدم تحريمنـا {مَـآ أَشْـرَكْنَا وَلاَ ءَابَآؤُنَـا وَلاَ حَرَّمْنَـا مِن شَىْءٍ} ففعلنا حـق مرضـى عنـد اللـه تعـالى ولـولا أنـه تعالى رضي ما نحـن فيـه لحـال بيننـا وبينـه {كَذَٰلِكَ كَـذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} أي مثل ما كذبك هؤلاء في أن الله منـع من الشرك ولَم يحرم ما حرموه كذب كفار الأمم الماضـية أنبياءهم، فكل من كذب نبياً قال الكل بمشيئة اللـه تعـالى

فهذا الذي أنا فيه من الكفر إنما حصل بمشيئة الله تعالى فلم يمنعني منه، وفي قراءة بتخفيف كذب أي مثل كذبهم في قولهم: إن ما فعلوه حق مرضي عند الله تعالى كذب من قبلهم في ذلك {حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا} أي عذابنا الذي أنزلنا عليهم بتكذيبهم الرسل وبكذبهم في قولهم إن الله أمرنا بالشرك {قُلْ} لهؤلاء المشركين: {هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ} أي بيان على ما تقولون من تحريم ما حرمتم ومن أن الله راض بشرككم {فَتُخْرِجُوهُ} أي فتظهروه {لَنَآ} كما بينا لكم خطأ قولكم وفعلكم {إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ ٱلظَّنَّ} أي ما تتبعون فيما أنتم عليه إلا الظن الباطل الذي لا يغني من الحق شيئاً {وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ} أي وما أنتم في ذلك إلا تكذبون على الله تعالى {قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ} أي قل لهم إن لم تكن لكم حجة فلله الحجة الواضحة التي تقطع عذر المحجوج وتزيل الشك عمن نظر فيها وهي إنزال الكتب وإرسال الرسل {فَلَوْ شَآءَ} هدايتكم جميعاً إلى الحجة البالغة {لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} ولكن لم يشأ هداية الكل بل هداية البعض.

{قُلْ} يا أكرم الرسل لهم: {هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا} أي أحضروا قدوتكم الذين ينصرون قولكم إن الله حرم الذي حرمتموه {فَإِن شَهِدُواْ} بعد حضوهم بأن الله حرم ذلك {فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ} أي فلا تصدقهم فيما يقولون بل بيِّن لهم فساده لأن السكوت قد يشعر بالرضا {وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِٱلآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} أي إن وقع منهم شهادة فإنما هي باتباع الهوى فلا تتبع أنت أهواءهم فهم كذبوا بالقرآن ولا يؤمنون بالبعث بعد الموت ويجعلون لله تعالى عديلاً. {قُلْ} يا أكرم الرسل لمن سألك أي شيء حرم الله وهم مالك بن عوف وأصحابه: {تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ} في الكتاب الذي أنزل، «على» مفسرة لفعل التلاوة {أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ} أي بربكم {شَيْئاً} من الإشراك {وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ} أي وأحسنوا بهما {إِحْسَاناً} ولم يقل الله ولا تسيئوا الوالدين لأن مجرد عدم تلك الإساءة إليهما غير كافٍ في قضاء حقوقهما {وَلاَ تَقْتُلُوۤاْ أَوْلَٰدَكُمْ مِّنْ إمْلَٰقٍ} أي من خوف الفقر وكانوا يدفنون البنات أحياء فبعضهم للغيرة وبعضهم لخوف الفقر وهذا هو السبب الغالب فبين تعالى فساد هذه العلة بقوله: {نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ

وَإِيَّاهُمْ} أي أولادكم {وَلاَ تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ} أي الزنا {مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ} أي ما يفعل منها علانية في الحوانيت كما هو دأب أراذلهم وما يفعل سراً بٱتخاذ الأخدان كما هو عادة أشرافهم، وجمع الفواحش للنهي عن أنواعها ولذلك ذكر ما أبدل عنها بدل اشتمال، وتوسيط النهي عن الزنا بين النهي عن قتل الأولاد والنهي عن القتل مطلقاً، لأنه في حكم قتل الأولاد فإن أولاد الزنا في حكم الأموات. وقد قال صلى الله عليه وسلم في حق العزل: «ذاك وأد خفي». {وَلاَ تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ} قتلها بكونها معصومة بالإسلام أو بالعهد {إِلاَّ بِٱلْحَقِّ} أي إلا قتلاً ملتبساً بالحق وهو أن يكون القتل للقصاص أو للردة أو للزنا بشرطه {ذَٰلِكُمْ} أي التكاليف الخمسة {وَصَّكُمْ بِهِ} أي أمركم به ربكم أمراً مؤكداً {لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} أي لكي تعقلوا فوائد هذه التكاليف في الدين والدنيا {وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلاَّ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ} أي إلا بالخصلة التي هي أحسن لليتيم كحفظه وتحصيل الربح به {حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ} أي قوته مع الرشد ومبدؤه من البلوغ وانتهاؤه إلى الثلاثة والثلاثين {وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ} أي أتموا الكيل بالمكيال والوزن بالميزان بالعدل من غير نقصان من المعطي ومن غير طلب الزيادة من صاحب الحق {لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا} عند الكيل والوزن {إِلاَّ وُسْعَهَا} أي إلا طاقتها في الإيفاء والعدل فإن الواجب في إيفاء الكيل والوزن هو القدر الممكن في إيفائهما أما التحقيق فغير واجب {وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ} أي ولو كان القول على ذي قرابة منكم فإذا دعا شخص إلى الدين وأقام الدليل عليه ذكر الدليل ملخصاً عن الزيادة بألفاظ معتادة، وإذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فلا ينقص عن القدر الواجب ولا يزيد في الإيذاء والإيحاش، وإذا حكى الحكايات فلا يزيد فيها ولا ينقص عنها، وإذا بلغ الرسالات عن الناس فيجب أن يؤديها من غير زيادة ولا نقصان، وإذا حكم فيجب أن يحكم بالعدل وأن يسوى في القول بين القريب والبعيد وذلك لطلب رضا الله تعالى {وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ} أي أتموا ما عاهدتم الله عليه من الأيمان والنذور وغيرهما {ذَٰلِكُمْ} أي التكاليف الأربعة {وَصَّكُمْ بِهِ} أي أمركم به أمراً مؤكداً {لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} ولما كانت التكاليف الخمسة في الآية الأولى أموراً ظاهرة مما يجب تفهمها ختمت بقوله

تعالى: {آيَٰتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} ولما كانت هذه التكاليف الأربعة غامضة لا بدّ فيها من الاجتهاد في الفكر حتى يقف على موضع الاعتدال ختمت بقوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} وحصل ما ذكر في هاتين الآيتين من المحرمات تسعة أشياء خمسة بصيغ النهي وأربعة بصيغ الأمر وتؤول الأوامر بالنهي لأجل التناسب وهذه الأحكام لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار {وَأَنَّ هَٰذَا} أي الذي بيَّنه الرسول صلى الله عليه وسلم من دين الإسلام {صِرَٰطِي} أي ديني {مُسْتَقِيمًا} أي لا اعوجاج فيه.

قرأ ابن عامر و«أن هذا» بفتح الهمزة وسكون النون، فأصلها وأنه هذا فالهاء ضمير الشأن والحديث وهو اسم إن والجملة التي بعده خبره. وقرأ حمزة والكسائي و«إن» بكسر الهمزة وتشديد النون فالتقدير اتل ما حرم واتل إن هذا بمعنى قل. وقرأ الباقون بفتح الهمزة وتشديد النون والتقدير واتل عليهم إن هذا صراطي مستقيماً {فَٱتَّبِعُوهُ} أي هذا الصراط {وَلاَ تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ} المخالفة لدين الإسلام {فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ} أي فتميل بكم هذه السبل عن سبيل الله الذي لا اعوجاج فيه وهو دين الإسلام. وعن ابن مسعود قال: خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً خطاً ثم قال: «هذا سبيل الله» ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله ثم قال: «هذه سبل على كل منها شيطان يدعو إليها» {ذَٰلِكُمْ} أي اتباع دين الله {وَصَّكُمْ بِهِ} في الكتاب {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} اتباع الكفر والضلالات {ثُمَّ ءاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ} أي ثم بعد تعديد المحرمات وغيرها من الأحكام إني أخبركم أنا أعطينا موسى التوراة {تَمَامًا} أي لأجل تمام نعمتنا {عَلَى ٱلَّذِى أَحْسَنَ} أي على من أحسن العمل بأحكامه كما يدل عليه قراءة عبد الله على الذين أحسنوا. وقرأ يحيى بن يعمر بالرفع بحذف المبتدأ أي على الذي هو أحسن ديناً كقراءة من قرأ مثلاً ما بعوضة بالرفع {وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَىْءٍ} أي ولبيان كل ما يحتاج إليه في الدين فيدخل في ذلك بيان نبوة سيدنا محمد ودينه {وَهُدًى} من الضلالة {وَرَحْمَةً} من العذاب {لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ} أي لكي يؤمن بنو إسرائيل بلقاء ما وعدهم الله به من ثواب وعقاب {وَهَٰذَا} أي الذي تلوت عليكم {كِتَٰبٌ} أي قرآن {أَنزَلْنَٰهُ} إليكم بلسانكم {مُبَارَكٌ} أي كثير المنافع ديناً ودنيا لا يتطرق إليه

النسخ {فَٱتَّبِعُوهُ} أي فاتبعوا يا أهل مكة ما فيه من الأوامر والنواهي والأحكام {وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} أي اتقوا مخالفته على رجاء الرحمة {أَن تَقُولُواْ} أي أنزلناه كراهة أن تقولوا يوم القيامة {إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ} وهو التوراة والإنجيل {عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا} وهم اليهود والنصارى {وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ} أي وإنه كنا عن قراءتهم لجاهلين فلا ندري ما في كتابهم إذا لم يكن بلغتنا. والمراد بهذه الآيات إثبات الحجة على أهل مكة بإنزال القرآن على سيدنا محمد كي لا يقولوا يوم القيامة: إن التوراة والإنجيل أنزلا على اليهود والنصارى ولا نعلم ما فيهما، فقطع الله عذرهم بإنزال القرآن عليهم بلغتهم {أَوْ تَقُولُواْ} أي لا عذر لكم في القيامة بقولكم {لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ} كما أنزل على اليهود والنصارى {لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ} أي أصوب ديناً منهم وأسرع إجابة للرسول منهم {فَقَدْ جَآءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ} أي لا تعتذروا بذلك فقد جاءكم قرآن من ربكم فإنه بيان فيما يعلم سمعاً وهو هدى فيما يعلم سمعاً وعقلاً وهو نعمة في الدين {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا} أي لا أحد أجرأ على الله ممن كذب بالقرآن ومحمد صلى الله عليه وسلم ومال عن {سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَٰتِنَا سُوۤءَ ٱلْعَذَابِ} أي شدته {بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ} أي بسبب إعراضهم {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰئِكَةُ} أي ما ينتظر أهل مكة إلا أحد هذه الأمور الثلاثة أي فلا يؤمنون بك إلا إذا جاءهم أحد هذه الأمور.

وقرأ حمزة والكسائي على التذكير {أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ} أي بحسب ما اقترحوا بقولهم لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا. وهم كانوا كفاراً، واعتقاد الكافر ليس بحجة. وقيل: المراد بالملائكة ملائكة الموت لقبض أرواحهم وبإتيان الله تعالى إتيان كل آياته بمعنى آيات القيامة كلها. وقيل: أو يأتي ربك يوم القيامة بلا كيف {أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ} أي بعض علامات ربك الدالة على قرب الساعة وهي عشرة وهي العلامات الكبرى وهي الدجَّال، والدابة، وخسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، والدخان، وطلوع الشمس من مغربها، ويأجوج ومأجوج، ونزول عيسى، ونار تخرج من عدن تسوق إلى المحشر {يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ} وهو طلوع الشمس من

مغربها {لاَ يَنفَعُ نَفْسًا} كافرة {إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ} أي قبل إتيان بعض الآيات {أَوْ} نفساً مؤمنة عاصية توبتها لم تكن {كَسَبَتْ فِى إِيمَٰنِهَا خَيْرًا} فحكم الإيمان والعمل الصالح حين طلوع الشمس من المغرب حكم من آمن أو عمل عند الغرغرة وذلك لا يفيد شيئاً، أما من كان يومئذ مذنباً فتاب، أو صغيراً أو مولوداً بعد ذلك فإنه ينفع توبتهم وإيمانهم وعملهم كما قاله ابن عباس.

روي عن ابن عباس أنه قال: لا تزال الشمس تجري من مطلعها إلى مغربها حتى يأتي الوقت الذي جعله الله غاية لتوبة عباده، فتستأذن الشمس من أين تطلع ويستأذن القمر من أين يطلع، فلا يؤذن لهما، فيحبسان مقدار ثلاث ليال للشمس وليلتين للقمر فلا يعرف مقدار حبسهما إلا قليل من الناس، وهم أهل الأوراد وحملة القرآن فينادي بعضهم بعضاً فيجتمعون في مساجدهم بالتضرع والبكاء والصراخ بقية تلك الليلة، فبينما الناس كذلك إذ نادى منادٍ ألا أن باب التوبة قد أغلق والشمس والقمر قد طلعا من مغاربهما ويتصايح أهل الدنيا وتذهل الأمهات عن أولادها، وتضع كل ذات حمل حملها، فأما الصالحون والأبرار فإنهم ينفعهم بكاؤهم يومئذ ويكتب لهم عبادة وأما الفاسقون والفجار فلا ينفعهم بكاؤهم يومئذ ويكتب عليهم حسرة.

قال عمر بن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم: وما باب التوبة يا رسول الله؟ فقال: «يا عمر خلق الله باباً للتوبة جهة المغرب فهو من أبواب الجنة له مصراعان من ذهب مكللان بالدر والجواهر ما بين المصراع إلى المصراع مسيرة أربعين عاماً للراكب المسرع فذلك الباب مفتوح منذ خلقه الله تعالى إلى صبيحة تلك الليلة عند طلوع الشمس والقمر من مغاربهما ولم يتب عبد من عباد الله توبة نصوحاً من لدن آدم إلى ذلك اليوم إلا ولجت تلك التوبة في ذلك الباب».

قال أبي بن كعب: يا رسول الله فكيف بالشمس والقمر بعد ذلك وكيف بالناس والدنيا؟ فقال: «يا أبي إن الشمس والقمر يكسيان بعد ذلك ضوء النار، ثم يطلعان على الناس ويغربان كما كانا قبل ذلك، وأما الناس بعد ذلك فيحلون على الدنيا ويعمرونها ويجرون فيها الأنهار ويغرسون فيها الأشجار، ويبنون فيها البنيان، ثم تمكث الدنيا بعد طلوع الشمس من مغربها مائة وعشرين سنة

السنة منها بقدر شهر، والشهر بقدر جمعة، والجمعة بقدر يوم واليوم بقدر ساعة. ويتمتع المؤمنون بعد ذلك أربعين سنة لا يتمنون شيئاً إلا أعطوه حتى تتم أربعون سنة بعد الدابة، ثم يعود فيهم الموت ويسرع فلا يبقى مؤمن ويبقى الكفار يتهارجون في الطرق كالبهائم حتى ينكح الرجل المرأة في وسط الطريق يقوم واحد عنها وينزل واحد وأفضلهم من يقول لو تنحيتم عن الطريق لكان أحسن».

وروي عن أنس أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «صبيحة تطلع الشمس من مغربها يصير في هذه الأمة قردة وخنازير وتطوى الدواوين وتجف الأقلام لا يزاد في حسنة ولا ينقص من حسنة، ولا ينفع نفساً إيمانها، لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً» {قُلِ ٱ نتَظِرُوٓاْ} ما تنتظرونه من إتيان أحد الأمور الثلاثة {إِنَّا مُنتَظِرُونَ} لذلك لنشاهد ما يحل بكم من سوء العاقبة. والمراد بهذا إن المشركين إنما يمهلون قدر مدة الدنيا فإذا ماتوا أو ظهرت الآيات لم ينفعهم الإيمان وحلّت بهم العقوبة اللازمة أبداً.

{إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا} أي أحزاباً في الضلالة {لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ} أي لست من البحث في تفريقهم فأنت منهم بريء وهم منك يرآء، ولست من قتالهم في هذا الوقت في شيء {إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ} أي يدبره كيف يشاء يؤاخذهم في الدنيا متى شاء ويأمركم بقتالهم إذا أراد {ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ} أي ثم يظهر الله لهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ويعلمهم أيّ شيء شنيع كانوا يفعلونه في الدنيا، ويرتب عليه ما يليق به من الجزاء. والمراد بهؤلاء المفرقين الخوارج كما أخرجه ابن أبي حاتم من حديث أبي أمامة: «أو هم أصحاب البدع والأهواء» كما أخرجه الطبراني من حديث عائشة.

وقال قتادة: هم اليهود والنصارى كما أخرجه عبد الرزاق وكما أخرج ابن أبي حاتم عن السدي وقال النّبيّ صلى الله عليه وسلم: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلهم في الهاوية إلا واحدة، وافترقت النصارى اثنين وسبعين فرقة كلهم في الهاوية إلا واحدة واستثناء الواحدة من فرق أهل الكتابين إنما هو باعتبار ما قبل النسخ وأما بعده فالكل في الهاوية وإن اختلفت أسباب دخولهم

وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلهم في الهاوية إلا واحدة». رواه أبو داود والترمذي والحاكم.

وقرأ حمزة والكسائي «فارقوا» بالألف أي باينوا بأن تركوا بعض دين آبائهم. والباقون فرقوا بالتشديد أي اختلفوا في دينهم كما اختلف المشركون بعضهم يعبدون الملائكة ويزعمون أنهم بنات الله وبعضهم يعبدون الأصنام ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله وبعضهم يعبدون الكواكب {مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ} أي من جاء يوم القيامة بالأعمال الحسنة من المؤمنين {فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا} أي فله جزاء عشر أمثالها وهذا أقل ما وعد من الأضعاف فالمراد بالعشرة الأضعاف. مطلقاً لا بالتحديد وقد جاء الوعد بسبعين وبسبعمائة وبغير حساب ولذلك قيل: المراد بذكر العشر بيان الكثرة لا الحصر في العدد الخاص {وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ} أي بالأعمال السيئة {فَلاَ يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا} أي الأجزاء السيئة الواحدة إن جوزي {وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} أي لا ينقصون من ثواب طاعتهم ولا يزادون في عقاب سيئاتهم {قُلْ} يا أشرف الخلق للمشركين الذين يدعون أنهم على ملة إبراهيم من أهل مكة واليهود والنصارى: {إِنَّنِى هَدَانِى رَبِّىۤ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ} أي أرشدني ربي بالوحي وبما نصب من الآيات التكوينية في الأنفس وفي السمٰوات والأرض إلى طريق حق {دِينًا قِيَمًا} أي لا عوج فيه. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بفتح القاف وكسر الياء مشددة. والباقون بكسر القاف وفتح الياء مخففة، وهو مصدر كالصغر والكبر والحول والشبع أي ديناً ذا قيم أي صدق {مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} أي مائلاً عن الضلالة إلى الاستقامة {وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ} وقوله تعالى: {دِينًا} بدل من محل صراط لأن محله النصب على أنه مفعول ثانٍ أو مفعول لفعل مقدر والتقدير ألزموا ديناً وقوله تعالى: {مِلَّةِ إِبْرٰهِيمَ} عطف بيان ل«ديناً» و{حَنِيفاً} حال من «إبراهيم» وكذا «وما كان» فهو عطف حال على أخرى {قُلْ إِنَّ صَلاَتِى} أي الصلوات الخمس {وَنُسُكِى} أي ذبيحتي وجمع بين الصلاة والذبح كما في قوله تعالى: {فَصَلّ لِرَبّكَ وَٱنْحَرْ} (الكوثر: 2). أو المعنى وكل ما تقربت به إلى الله تعالى فإن معنى الناسك من صفّا نفسه من دنس الآثام {وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى} أي وما أنا عليه في حياتي وما أكون عليه عند موتي من الإيمان والطاعة {للَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ} أي إن صلاتي وسائر عبادتي

وحياتي ومماتي كلها واقعة بخلق الله تعالى وتقديره وقضائه وحكمه {لاَ شَرِيكَ لَهُ} في الخلق والتقدير {وَبِذٰلِكَ} أي وبهذا التوحيد {أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ} أي المستسلمين لقضاء الله وقدره فإنه صلى الله عليه وسلم أول من أجاب ببلى يوم العهد لسؤال الله تعالى ألست بربكم، أو المعنى وأنا أول المنقادين لله من أهل ملتي وهذا بيان لمسارعته صلى الله عليه وسلم إلى الامتثال بأمر الله. {قُلْ} يا أشرف الرسل للكفار الذين قالوا لك ارجع إلى ديننا {أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا} أي أأعبد رباً غير الله {وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ} أي والحال أن الله رب كل شيء مع أن الذين اتخذوا رباً غير الله أقروا بأن الله خالق الأشياء كما قال تعالى: {قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُونّي أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ} (الزمر: 46) وأصناف المشركين أربعة عبدة الأصنام فهم معترفون بأن الله هو الخالق للسمٰوات والأرض وللأصنام بأسرها وعبدة الكواكب فهم معترفون بأن الله خالقها، والقائلون بيزدان واهرمن فهم معترفون بأن الشيطان محدث وأن محدثه هو الله والقائلون: بأن المسيح ابن الله والملائكة بناته فهم معترفون بأن الله خالق الكل، وإذا ثبت هذا فنقول: العقل الخالص يشهد بأنه لا يجوز جعل المربوب شريكاً للرب وجعل المخلوق شريكاً للخالق {وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ} ذنباً {إِلاَّ عَلَيْهَا} أي الإحالة كونه مستعلياً عليها بالمضرة أو حالة كونه مكتوباً عليها لا على غيرها {وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ} أي ولا تحمل نفس آثمة ولا غير آثمة إثم نفس أخرى، فلا تحمل نفس طائعة أو عاصية ذنب غيرها، وإنما قيد في الآيات بالوازرة موافقة لسبب النزول وهو أن الوليد بن المغيرة كان يقول للمؤمنين: اتبعوا سبيلي أحمل عنكم أوزاركم {ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ} أي إلى مالك أموركم {مَّرْجِعُكُمْ} أي رجوعكم يوم القيامة {فَيُنَبِّئُكُم} يومئذ {بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} من الأديان في الدنيا {وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلأَرْضِ} أي جعلكم يخلف بعضكم بعضاً في الأرض {وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ} في الشرف والرزق {فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ} كثرة متفاوتة فجعل الله منهم الحسن والقبيح، والغني والفقير، والشريف والوضيع، والعالم والجاهل، والقوي والضعيف، وإظهار هذا التفاوت ليس لأجل العجز والجهل والبخل فإنه تعالى منزه عن ذلك وإنما هو لأجل الامتحان وهو المراد من قوله

{لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ آتَٰكُمْ} أي ليعاملكم معاملة المختبر فيما أعطاكم من الجاه والمال والفقر أيكم يشكر وأيكم يصبر وهو أعلم بأحوال عباده منهم. والمراد من الابتلاء هو التكليف، ثم إن المكلف إما أن يكون مقصراً فيما كلف به أو موفراً فيه فإن كان مقصراً كان نصيبه من التخويف قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ} لمن كفر به ولا يشكره ووصف العقاب بالسرعة لأن ما هو آت قريب، وإن كان المكلف موفراً في الطاعات كان نصيبه من الترغيب قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} لمن راعى حقوق ما أعطاه الله تعالى كما ينبغي.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «نزلت عليَّ سورة الأنعام جملة واحدة يتبعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد فمن قرأ الأنعام صلى عليه واستغفر له أولئك السبعون ألف ملك بعدد كل آية من سورة الأنعام يوماً وليلة».